

مَقْدَمُ تَقْسِيمِ ابْنِ النَّقِيبِ

فِي عِلْمِ الْبَيَانِ وَالْمَعَانِي وَالْبَدِيعِ وَاعْجَازِ الْقُرْآنِ

لِلْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْبُلْخِيِّ الْمَقْدِسِيِّ الْحَنْفِيِّ

الشَّهِيرِ بِابْنِ النَّقِيبِ وَالمُتَوَفَى ٦٩٨ هـ

وَالطَّبْعُ خَطَأٌ بَعْضُهُ

الْفَوَائِدُ الْمَشْقُوقَةُ إِلَى عِلْمِ الْقُرْآنِ وَعِلْمِ الْبَيَانِ

لِابْنِ الْقَيْمِ الْجَوْزِيِّ

كُفِّ عَنْهَا وَاعْلَمُوا حَوَاشِيهَا

د. ذَكَرِيَّا سَعِيدٌ عَلِيٌّ

دَارُ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ

النَّاشِرُ مَكْتَبَةُ النِّجَاحِ بِالْقَاهِرَةِ

صف وطبع هذا الكتاب بمكتبة ومطبعة الخانجي

ص . ب / ١٣٧٥ بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

رقم الإيداع

٩٥ / ٢٧٠

إليه

إلى من كان نورا لعيني في ظلامي ولا يس
إلى من كان منجى لي من بلدٍ وما هو
إلى شيخنا الهادي إلى فطر

محمد محمد

أهدي هذا العمل

زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . إنه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

« اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلُم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتردّ بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء . »

* * *

وبعد ... فما أسعدني أن أجلو غبار الزمن المتطاوّل عن هذه القطعة الغالية من تراثنا التليد ، وأعيدها إلى مكانها اللائق بين أيدي الدارسين بعد غيبة مئات من السنين لها . وإنه فضل من الله الكريم المنان أن يجرى هذا الخير على يدي . يسعدني أن أتقدم إلى أهل العلم وطلابه بهذه الطبعة الأولى الكاملة (*) من مقدمة تفسير ابن النقيب في علوم البلاغة . وكنت قد نشرت بمجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الخامس والثلاثون (٣٥) بحثاً عن هذه المقدمة لتصحيح هذا الخطأ الذي ساد في وسط الدارسين من نسبة ما أطلق عليه اسم « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » إلى الإمام ابن قيم الجوزية . وكان هذا المقال بمثابة إرھاصة بين يدي هذا العمل . وقد وجدت

(*) كنت - بحمد الله - قد أصدرت منها طبعة غير مكتملة من نحو ستين ، وقد لقيت استقبالا طيباً من الباحثين والعلماء فدفعني هذا إلى إعادة النظر فيها ثانية وإخراجها بتمامها .

له أصداء طيبة أثلجت صدرى . ومنها ما علّق به الأستاذ الدكتور عبد الإله نيهان ، وكيل كلية الآداب بجامعة البعث في حمص بسورية ، في نشرة أخبار التراث العربى ^(٥) فقال : « قتل الكاتب الشك باليقين في تحقيق نسبة الكتاب إلى ابن النقيب بالحجة والدليل ، فقضى بذلك على شكوك طالت مساورتها أفكار المحققين » .

وقد أفادنى تعليقه هذا فائدة ثمينة - جزاه الله خيرا - حيث نهينى إلى ما نُشر طعنًا في نسبة هذا الكتاب بمجلة المنار عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م منسوبًا إلى « أبى الأشبال » . وقال الدكتور نيهان : إن الكاتب لم يصرح باسمه .

وما إن قرأت هذا حتى استخفنى السرور ، فـ « أبو الأشبال » كنية الأستاذ المحقق العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله ، وكان يصدر بها كثيرًا من كتاباته ؛ فلكلامة قدره ووزنه الذى يعرفه له العارفون . وإننى - هنا - أثبت نص كلام الأستاذ الكبير فى صدر هذا العمل عرفانًا بفضلته وتقدمه .

قال رحمه الله : « ومن الكتب المنسوبة قصداً للنفاق كتاب يسمى كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » نسب إلى الإمام الجليل شمس الدين ابن القيم رضى الله عنه ، وهو كتاب لا بأس به ، فيه فوائد أدبية ، ونكت بلاغية ، فصيح العبارة . ويظهر أن مؤلفه كان من الكتاب المنشئين ، لا العلماء المحققين - أمثال إمامنا ابن القيم - فإن له فى بعض المسائل تحقيقات واختيارات سخيفة لا يقوّلها من شام للعلم بارقة . لو لم يكن لشمس الدين ابن القيم بين أيدينا كتب غير هذا لقلنا : كاتب يتسخف ويظن أنه محقق ، وأحمق يتكاسى ويظن أنه عاقل ، ولكن كتب ابن القيم تنادى بقوة نظره ودقة بحثه ، وكثرة علمه ، وبعد غوره ، والله دره من إمام جليل ، وحاشا لله أن يقول فى إعجاز القرآن كما قال مؤلف هذا الكتاب فى صحيفة ٢٥٥ بعد أن حكى الأقوال فى وجه الإعجاز ما نصه : « قال المصنف عفا الله عنه : والأقرب من هذه الأقاويل

(٥) نشرة أخبار التراث العربى : المجلد : ٥ ، الأعداد : ٥٥ - ٥٩ ، ص : ٤٠ .

إلى الصواب قول من قال : إن إعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيح والتحريف والزيادة والنقصان ، فإنه ليس عليه إيراد ولا مطعن . هذا اختياره . وحكاية مثل هذا تغنى عن ردّه وضرب الأمثال على بطلانه . وأغرب من هذا القول قوله فى الصحيفة نفسها بعد أسطر : « وقال قوم : إعجازه من جهة أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة قائمة بالذات ، وأن العرب إذ تُحدوا بالتماس معارضتهم له والإتيان بمثله أو بمثل بعضه كلفوا مالا يطاق ، ومن هذه الجهة وقع عجزهم ، وهذا القول أيضا حسن » . هذا كلامه بنصه ، ولأنى أترك للقارىء فهم معنى التحدى بالصفة القديمة فذلك مما يقصر عقلى عن دركه .

وقد اتصل بى أن النسخة الخطية التى طبع عنها هذا الكتاب كانت نسبته فيها إلى ابن القيم مكتوبة عليها بخط جديد غير خط الأصل ، فقبل لطابعه : لا تنسبه لابن القيم فلعل كاتب هذه لم يتحرّر النسبة ، وخصوصاً أن الكتاب غير معروف فى كتب ابن القيم فأبى ونسبه إليه . فحسبنا الله ونعم الوكيل . انتهى كلام أبى الأشبال وقد نشره فى « النار » المجلد (١٩) عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م - ص ١٢٠ - باب المراسلة والمناظرة .

وبعد أن انتهى الدكتور نبهان من سياقة كلام أبى الأشبال علّق عليه بقوله : « وواضح أن أدوات البحث وصلت بالدكتور زكريا إلى نتائج مقنعة لم يصل إليها كاتب تلك السطور عام ١٩١٦ . وجزى الله الكاتبين السابق واللاحق خير الجزاء » .

وأنا أقول أيضاً : وجزى الله الكريم الدكتور عبد الإله نبهان خير الجزاء على ما قدمه لى من هذه الفائدة الثمينة ، ورحم الله الأستاذ الكبير أحمد محمد شاكر على ما أسداه للعلم طلابه .

وبعد .. فعلم الله مدى ما بذلت من الجهد والعناء فى سبيل إخراج هذا العمل . لولا رعاية الله وتوفيقه لضللت السبيل ولغابت عنى أعلام الطريق الهادية . فما كان فيه من صواب فمن الله ، وما كان فيه من حياد عن الجادة فمن نفسى ومن الشيطان . وإننى هنا لأتوجه إلى أهل العلم وطلابه - آملاً - أن يتجهوا

إلى هذا العمل بالتقويم والتسديد والإرشاد . « والعلم رحم بين أهله » ، والكمال لله وحده « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت »

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ تَبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِةَ

ولا يفوتني - هنا - أن أذكر فضل عملين رائدين كان لهما أثر كبير في تيسير ضبطى لمصطلحات البلاغة ومراجعتها في أصولها - وما كان أعسر ذلك ! - وهما : كتاب الدكتور أحمد مطلوب « معجم المصطلحات البلاغية وتطورها » ، وتحقيق الدكتور حنفى شرف لكتاى ابن أبى الإصبع : تحرير التحرير وبديع القرآن .

كما أتقدم بموفور شكرى لمن أسدى إلى فضل معاونة ومؤازرة ، وأخص بالذكر الإخوة الزملاء الدكتور هشام عبد العزيز والدكتور محمد صقر والدكتور عبد السلام السيد حامد على ما بذلوه من جهد في أعمال المقابلة والتصحيح . ولأنه لمن دواعى سرورى أن يتولى نشر هذه الطبعة الأولى من هذا العمل أحفاد ناشر مطبوعة الفوائد المشوق « الخانجي » رحمه الله ، فتحقق في هذا العمل امتداد الأجيال ، وأسأل الله أن يوفقهم لخدمة هذا التراث .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » . « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » . والحمد لله في الأولى والآخرة .

أبو يحيى
زكريا سعيد

القاهرة : وقت آذان العصر من يوم الإثنين
الثامن عشر من رمضان : ١٤١٤ هـ

٢٨ من فبراير ١٩٩٤ م

كتاب

« الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان »

المنحول للإمام ابن قيم الجوزية ، هو

مقدمة تفسير ابن النقيب

« الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » للإمام ابن قيم الجوزية ^(١) كتاب صدرت طبعته الأولى بالقاهرة عام ١٣٢٧ هـ ^(٢) على نفقة محمد أمين الخانجي ^(٣) الكتبي وشركاه بمصر والآستانة . وعنى بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني ^(٤) . وقد أثنى على هذا الكتاب أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي فقال : « أما إن أردت أن تعرف أنواع البلاغة في آيات القرآن والتشثيل منها لكل نوع فليس أوفى بغرضك من كتاب « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١ هـ . وقد جمعه من أمهات الكتب المصنفة في البلاغة ، فكان في ذلك الغرض بها جميعا » ^(٥) .

(١) هو الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية (الجوزية) بفتح الجيم مدرسة كبيرة كانت للحنابلة بدمشق الشام . ولد سنة ٦٩١ هـ . قال عنه السيوطي : صنف وناظر واجتهد وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصول والعربية وتوفى سنة ٧٥١ هـ .

(٢) وما ظهر من طبعات أخرى من الكتاب بعد ذلك فهو فمأخوذ عن هذه الطبعة مع بعض التصرف في حذف اسم الناشر الأول وتاريخ الطبعة الأولى ، وحذف شيء من مقدمة خطبة المؤلف ، مثلما فعلت مكتبة المتنبي بالقاهرة في إخراج مصورة من هذا الكتاب أولاً ثم قاموا بإعادة صفه وطبعه . ومن الغريب أنه أخرجت له أخيراً دار الكتب العلمية بيروت نشرة زعموا أنها محققة على أصول معتمدة : وهذا أمر مثير للسخرية والألم في نفس الوقت ، وما هي إلا نسخة « المتنبي » السابقة بكل مسخها وتحريفها . والله الأمر من قبل ومن بعد !! .

(٣) ولد في حلب سنة ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م وتعلم بها . وانتقل إلى القاهرة ، وأنشأ مكتبة الخانجي . ونشر الكثير من نواذر التراث العربي . وتوفى بالقاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م . ترجمته في : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي للدكتور محمود الطنحاني : ٥٩ .

(٤) هو محمد بن مصطفى بن رسلان النعساني الحلبي ، أديب شاعر ولد بحلب سنة ١٢٩٨ هـ . وتوفى ١٣٦٢ هـ - نزل مصر وأقام بالأزهر ثماني سنوات ، واشتغل بتصحيح الكتب إلى تأليف أخرى . انظر ترجمته في مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي : ٦١ .

(٥) إعجاز القرآن للرافعي : ٢١٠ .

وقال عنه في موضع آخر من كتابه « إعجاز القرآن » تحت عنوان « البلاغة في القرآن » : (وبعد فلا سبيل من كتابنا هذا إلى بسط الكلام وتقسيمه فيما تضمنه القرآن من أنواع البلاغة التي نصب لها العلماء أسماءها المعروفة كالاستعارة والمجاز وغيرهما . فضلاً عن أنواع البديع الكثيرة . فإن ذلك يخرج الكلام مخرج التأليف وبناء القول على هذه الفنون نفسها . وهو معنى كان استخراجها من القرآن باباً مفرداً صنف فيه جماعة من العلماء المتأخرين منهم الإمام الرازي المتوفى ٦٠٦ . فقد لخص كتاب « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » للجرجاني . واستخرج منهما كتابه في « إعجاز القرآن » وهو كتاب معروف ، أحسن في نسقه وتبويبه . ثم الأديب ابن أبي الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤ . فقد صنف كتاب « بدائع القرآن » أورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها . واستخرج أمثلتها من القرآن . ثم ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ . وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى تصنيفه كتاب « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم اليان ، وهو في معناه بتلك الكتب كلها ، (١) .

وقد أشار إلى هذا الكتاب الدكتور أحمد مطلوب في دراسته « البلاغة عند السكاكي » وذهب إلى أن هذا الكتاب خلو من تأثير السكاكي وأنه من وجهة أخرى من درس البلاغة وأنه من مدرسة ضياء الدين بن الأثير الذي كان له الأثر الكبير عليه (٢) . وقد أشار إلى هذا الكتاب إشارة عابرة الدكتور شوقي ضيف في كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » (٣) .

ولم تتطرق هذه الدراسات جميعها إلى مسألة : « صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام ابن قيم الجوزية » ، حيث تلقت - كلها - هذه النسبة بالقبول ! وقد تسرب إلّى الشك في صحة نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه منذ بدأت المطالعة فيه ، وكنت كلما ازدددت قرباً منه يزداد هذا الشك عندى ويمكن ؛

(١) السابق : ٢٥٦ .

(٢) البلاغة عند السكاكي : ٣٥٧ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ : ٣١٩ ، ٢٢٠ .

الأسلوب ، وهذه الروح ليست هى التى يشعر بها من يطالع كتب ابن قيم الجوزية الأخرى ، وإنه ليستحيل أن يوجد لكاتب واحد أسلوبان وطريقتان مختلفتان ، كما يستحيل أن يوجد لشخص واحد بصمتان ، و « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » .

وكان لابد لى من أن أسلك طريقاً علمياً لتحرير هذا الشك الماحس فى نفسى ، فكان أن اخترت - فى سبيل ذلك - منهجاً عربياً أصيلاً عرفه علماء هذا الأمة من قديم : طريق نقد السند والمتن . وهو منهج أصله علماء الحديث النبوى وانتقل منهم إلى غيره من العلوم . فقلت فى نفسى : أما جانب « السند » - فى قضية النسبة التى معنا هنا - فتحريره يكون من الكتب التى اعتنت بهذه الناحية ؛ فعلى أن أتجه إلى كل مَنْ ترجم لابن القيم وذكر كتبه ، عسائ أن أجد ذكرًا ما لهذا الكتاب الذى بين يدي . وكان أن صحت عزيمتى على مراجعة كتب التراجم والطبقات والتصانيف المهمة بتوثيق نسبة الكتب لأصحابها ككشف الظنون ومفتاح دار السعادة وهداية العارفين ونحوها .

وبعد أن سرت شيئاً فى هذا الطريق وقعت على ما صنعه الأستاذ بكر ابن عبد الله أبو زيد فى كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » ، وما بذله من جهد جليل القدر فى حصر مؤلفات ابن القيم وتوثيق نسبتها إليه ، وأتى فى ذلك بما وفّر به على كثيرًا من الجهد والوقت وقد قرّر الأستاذ الباحث أنه لم ير من نسب كتاب « الفوائد المشوق » إلى ابن القيم قبل طبعه . وتوقف مبدئياً شيئاً من الشك فى صحة هذه النسبة لابن القيم ^(١) . وقد ذكر الأستاذ أبو زيد

(١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره : ١٨٤ - ١٨٥ ، وقد كنت أظن أن الأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد هو أول من شك فى نسبة هذا الكتاب - قبل - إلى ابن القيم ، وقد ذكرت هذا فيما نشر لى من مقال عن هذا الموضوع بمجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد ٣٥ ، وقد علّق عليه بعد ذلك فى نشرة أخبار التراث العربى ص ٤٠ ، ٤١ (المجلد الخامس - الأعداد : ٥٥ - ٥٩) المذكور عبد الإله نبهان وكيل كلية الآداب بجامعة البعث فى حمص بسورية ، ونهني إلى أن الأستاذ « أبو زيد » ليس أول من شك فى نسبة الكتاب ، وأنه مسبوق فى ذلك قديماً بمن يدعى « أبا الأشبال » حيث نشر طعنا فى ذلك فى مجلة (المنار المجلد ١٩ ، الصادر عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م ص ١٢٠ فى باب المراسلة =

مصادره في استقراء كتب ابن القيم وهي كتاب : الوافي بالوفيات لصالح الدين الصفدي المتوفى ٧٦٣ هـ وهو من تلاميذ ابن القيم ، والذيل على طبقات الحنابلة لتلميذ ابن القيم ابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والمنهل الصافي لابن تفرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ، وبغية الوعاة للسيوطي المتوفى ٩١١ هـ ، وطبقات المفسرين للداودي المتوفى ٩٤٥ هـ وكشف الظنون ، للحاج خليفة المتوفى ١٠٦٧ ، وشذرات الذهب لابن العماد المتوفى ١٠٨٩ ، و « البدر الطالع » للشوكاني المتوفى ١٢٥٠ ، و « التاج المكلل » لصديق خان المتوفى ١٣٠٧ هـ ، و « هدية » العارفين ، لإسماعيل باشا البغدادي ، المتوفى ١٣٣٩ وغيرها (٢) .

كل هؤلاء ذكروا كتباً مصنفة لابن القيم ، وكلهم سكت عن أن له كتاباً يحمل عنوان « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » . وأمر كهذا يوجه طعنة قاضية لتوثيق نسبة هذا الكتاب لابن القيم . فهل يمكن أن يغيب عن علماء الأمة طيلة نحو سبعة قرون من الزمان كتاب لابن القيم لا يذكره واحد منهم ولا يكتشف إلا في هذه الأيام ١٢ .

* * *

هذا عن الجانب الأول وهو جانب نقد « السند » . أما الجانب الثاني وهو « نقد المتن » ، فالتجهت فيه إلى الكتاب بالدرس والتأمل فكان أن كشف لي - أيضاً - عن استحالة أن يكون هذا الكتاب لابن القيم لما يأتي :

= والمناظرة (وأورد الدكتور نيهان نص الكاتب وعلق عليه بقوله : « ولم يصرح الكاتب باسمه ، وقال : كتبه أبو الأشبال عفا الله عنه » . وما « أبو الأشبال » هذا الذي أشار إليه الدكتور نيهان إلا الأستاذ الكبير المحدث المجتهد الشيخ أحمد محمد شاکر رحمه الله فهذه كتيته وقد نقلت مقالة الشيخ أحمد شاکر فيما سبق صفة : ٧ ، ٦ .

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره : ١١٢ - ١١٦ .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة : ٢٨٤ .

١ - ابن القيم مشهور عنه موقفه من « المجاز » ووصفه له بأنه « طاغوت » ، وقد أفرد فصلاً من كتابه « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة » بعنوان : « في كسر الطاغوت الثالث الذى وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز » ^(١) . وقال عنه : « هذا الطاغوت لهج به المتأخرون ، والتجأ إليه المعطلون ، وجعلوه جُنةً يَتَرَسُونَ بها من سهام الراشقين ، ويصدون عن حقائق الوحي المبين » ^(٢) . وقد قرّر ابن القيم فى كتابه هذا أن قسمة الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيماً شرعياً ولا لغوياً أيضاً . وأن « الشرع لم يرد بهذا التقسيم ولا دل عليه ، ولا أشار إليه ، وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم بأن العرب قسمت لغاتها إلى حقيقة ومجاز ، ولا قال أحد من العرب قط : هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز . ولا وجد فى كلام من نقل لغتهم عنهم - مشافهةً ولا بواسطة - ذلك . ولهذا لا يوجد فى كلام الخليل وسيبويه والفراء وأبى عمرو بن العلاء والأصمعى وأمثالهم . كما لم يوجد ذلك فى كلام رجل واحد من الأئمة الأربعة وهذا الشافعى وكثرة مباحثه مع محمد بن الحسن وغيره لا يوجد فيها ذكر « المجاز » البتة . وهذه رسالته التى هى كأصول الفقه لم ينطق فيها بالمجاز فى موضع واحد . وكلام الأئمة مدون بحروفه لم يحفظ عن أحد منهم تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز . بل أول من عُرف عنه فى الإسلام أنه نطق بلفظ « المجاز » أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى فإنه صنّف فى تفسير القرآن كتاباً مختصراً سمّاه « مجاز القرآن » وليس مراده به تقسيم ^(٣) الحقيقة فإنه تفسير لألفاظه بما هى موضوعة له ، وإنما عنى بالمجاز ما يعبر به عن اللفظ ويُفسّر به كما سمى غيره كتابه « معانى القرآن » أى ما يعنى بألفاظه ويراد بها كما يسمى ابن جرير الطبرى وغيره ذلك تأويلاً ^(٤) .

(١) مختصر الصواعق المرسلة : ٢٨٤ .

(٢) مختصر الصواعق : ٢٨٤ .

(٣) كذا بالمطبوعة . ولعلها : (قسم) .

(٤) مختصر الصواعق : ٢٨٥ .

ثم ينتهى بعد ذلك إلى تقرير أن مصطلح « المجاز » حادث بعد المائة الثالثة ، وكان من جهة الجهمية والمعتزلة . فيقول : « وإذا علم أن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيماً شرعياً ولا عقلياً ولا لغوياً فهو اصطلاح محض . وهو اصطلاح حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة بالنص . وكان منشؤه من جهة المعتزلة والجهمية ومن سلك طريقهم من المتكلمين » (١) .

ثم اتجه ابن القيم - بعد ذلك - إلى إبطال هذه القسمة « الحقيقة والمجاز » في نحو ثمانين صفحة بكلام إجمالى (٢) . ثم خصص - بعدها - فصلاً فيما ادعوا فيه وقوع « المجاز » في كلام الله وكلام رسوله ﷺ . ورد ذلك على وجه التفصيل في نحو من أربع وأربعين صفحة ومائة في طبعة مختصر الصواعق (٣) التى بين أيدينا .

ثم انتهى إلى أنه ليس هناك جدوى ولا طائل - مع كل ما ساقه من أضرار - لهذه القسمة إلى « الحقيقة والمجاز » . يقول ابن القيم : « فالذين قسموا الكلام إلى حقيقة ومجاز إن أرادوا بذلك التقسيم الذهني لم يقدم ذلك شيئاً وإن أرادوا التقسيم الخارجى لم يكن معهم دليل يدل على وجود الجميع فى الخارج سوى مجرد التقسيم وهو لا يفيد الثبوت الخارجى . فحيث لا يتم لهم مطلوبهم حتى يثبتوا أن هاهنا ألفاظاً وضعت لمعان حتى تقلب عنها بوضع ثان على معان أخر غيرها وهذا مما لا سبيل لأحد إلى العلم به » (٤) .

هذه نصوص ابن القيم التى تكشف عن حقيقة موقفه من قضية المجاز . وإن من ينظر فيها وفيما جاء فى الكتاب الموسوم بالفوائد المشوق ليقطع بلا تردد أن صاحب هذا الكتاب لا يمكن أن يكون ابن القيم ؛ فقد أسهب صاحبه فى الحديث عن أقسام المجاز ووصل بها إلى أربعة وعشرين قسمًا تحت كل قسم

(١) مختصر الصواعق : ٢٨٧ .

(٢) مختصر الصواعق : ٢٨٤ - ٣٦٤ .

(٣) من صفحة ٣٦٥ - ٥٠٩ .

(٤) مختصر الصواعق : ٢٩٠ .

أقسام أخرى ، واستغرق في ذلك ما يقرب من الثمانين صفحة من طبعة الفوائد المشوق ^(١) .

وأما ما ذهب إليه الدكتور صبرى المتولى - من أن كتاب « الفوائد المشوق » يمثل المرحلة الأخيرة في تطور تفكير ابن القيم البلاغى وأنه اكتسب فيه استقلالاً عن شيخه ابن تيمية ، وأنه أعاد فيه النظر في آرائه التى سبقت فى كتاب الصواعق المرسلة ^(٢) - فهذا ضرب من الظن وقول بلا دليل حتى لو سلمنا - جداً - بثبوت صحة نسبة هذا الكتاب لابن القيم ؛ فهذا الذى ذهب إليه الأستاذ يحتاج إلى معرفة تاريخ تأليف كل من الكتابين حتى يعلم السابق واللاحق . وعندها يمكن القول بنسخ اللاحق للسابق . وهذا منعدم هنا .

٤ - وما لفت نظرى فى هذا الكتاب الموسوم بـ « الفوائد المشوق » عند ذكره للزنجشرى أنه يتبع ذلك بصيغة الترحم عليه : (رحمه الله) ^(٣) .

وهذا مما لا يمكن أن يصدر عن واحد مثل ابن القيم السلفى المعتقد الذى عنده أن المعتزلة من فرق المبتدعة والضلالة ، والزنجشرى رأس من رؤوس هؤلاء . ولم نعهد واحداً من أئمة أهل السنة والحديث يرد على المعتزلة مفنئاً ومسفهاً ثم يأتى بعد ذلك ذكر أحد أئمتهم فيترحم عليه !

٥ - وما لفت نظرى أيضاً فى كتاب « الفوائد المشوق » - هذا - أنه عند ذكر فخر الدين الرازى نجده يسبق اسمه بما يحمل الإجلال والإعظام فلا يذكره إلا بعد أن يسبقه بلفظ « الإمام » ، فيقول : « وقال الإمام فخر الدين رحمه الله » ^(٤) . ومثل ذلك نجده عند ذكره للعز ابن عبد السلام حيث يصفه بـ « الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام » ^(٥) . وهذا غريب على أسلوب ابن القيم الحنبلى المذهب ، فهذا مالا نجده فى باقى كتبه ، وغاية ما يمكن

(١) من صفحة ٩ - ٨٧ .

(٢) انظر : منهج أهل السنة فى تفسير القرآن الكريم . دراسة موضوعية لجهود ابن القيم فى التفسير ،

للدكتور صبرى المتولى : ٤٣١ .

(٣) الفوائد المشوق : ١٠٦ .

(٤) الفوائد المشوق : ٤٤ ، ١٤٧ .

(٥) الفوائد المشوق : ١٣ ، ٣٢ .

أن نجده عنده أن يقول - مثلاً - عن العز بن عبد السلام : « الشيخ أبو محمد ابن عبد السلام » ^(١) .

٣ - لفت نظري - أيضا - في هذا الكتاب إطلاقه « الشيخ » على أبي العلاء المعري : وهذا غريب على مثل ابن القيم الذي وصف أبا العلاء بأنه « أعمى البصر والبصيرة ، كلب مَعْرَة النعمان ، المكنى بأبي العلاء المعري » ^(٢) .

هذا لفظ ابن القيم في وصف أبي العلاء . ويظهر منها استكثاره - حتى - أن ينطق لسانه بكنية « أبي العلاء » مباشرة - فيسبقها بقوله (المكنى) ويصفه بـ (الكلب ، وأعمى البصر والبصيرة) . ولا أظن أن ابن القيم العفّ اللسان وصل إلى هذا الحد في وصف أحد بمثل هذه الصفات غير أبي العلاء المعري ؛ فأن يتحول إلى ضد ذلك في كتاب « الفوائد المشوق » ويرفع منه ويجعله « الشيخ أبا العلاء » فهذا مالا أتصوره !

٢ - ابن القيم معروف باطلاعه الواسع على السُنّة النبوية المطهرة وله تحقيقات واسعة في الحديث النبوي الشريف سنّدا ومتّنا ، رواية ودراية . وما بين أيدينا من كتبه شاهد على ذلك ، وله مصنف في التبيه على الأحاديث الساقطة والواهيّة هو كتاب « المنار المنيف » . واحد هذه صفته لا يمكن أن يقع في كتابه من الأحاديث ما هو مكذوب على النبي ﷺ ولا يتبّه إليه ! وهذا ما وقع في الكتاب الموسوم بـ « الفوائد المشوق » حيث وردت فيه مجموعة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة على رسول الله ﷺ . ولن أتعرض للأحاديث الضعيفة حيث إن من أهل العلم من يميز الاحتجاج بها . أما المكذوبة على رسول الله ﷺ فهي زور وبهتان وقد توعدّ النبي ﷺ فاعله بمقعه من النار . أضف إلى ذلك أن عادة ابن القيم المحدث الفقيه نسبة الأحاديث إلى مخرجها من أصحاب

(١) انظر الوابل الصيّب من الكلم الطيب لابن القيم : ٢٥ - ٢٨ .

(٢) طريق المجرتين : ١٤٦ .

كتب السُّنة النبوية ، وهذا معدوم - هنا - فلا يوجد حديث في كتاب « الفوائد المشوق » محال إلى مخرجه من أصحاب كتب السُّنة .

وهذه بعض الأمثلة : أورد صاحب الكتاب في باب « السهل الممتنع » في القسم الخاص من الباب الثانى المتعلق بفصاحة الألفاظ أمثلة من السُّنة فقال : (ومنه في السُّنة كثير .. من ذلك قول ﷺ ... وقوله ﷺ « إياكم وخضراء الدِّمنِ . قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، وقوله ﷺ : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وعودوا كل جسد ما اعتاد ... » (١) .

وما أوردته هنا من حديث (المعدة بيت الداء ...) لا يعقل أن ينسبه ابن القيم إلى رسول الله ﷺ وهو الذى قال عنه في كتابه زاد المعاد : (وأما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس « الحمية رأس الدواء والمعدة بيت الداء وعودوا كل جسد ما اعتاد » فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ولا يصح رفعه إلى النبى ﷺ . قاله غير واحد من أئمة الحديث) (٢) .

وأما حديث « إياكم وخضراء الدِّمن ... » فقال عنه الأستاذ الشيخ ناصر الدين الألبانى : (ضعيف جدًا . رواه القضاعى فى مسند الشهاب وأورده الغزالى فى الإحياء وقال مخرجه العراقى رواه الدارقطنى فى الأفراد والرامهرمزي فى الأمثال) (٣) .

- ونجد مصنف الكتاب الذى معنا يورد فى باب التشبيه حديثًا ذائع الانتشار فى كتب البلاغة وهو فى الحقيقة موضوع ، وهو (أصحابى كالنجوم ...) (٤) ، قال عنه الشيخ ناصر الدين الألبانى : (موضوع ورواه ابن

(١) الفوائد المشوق ص ٢٢٣ .

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم : ٩٨/٣ .

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ ناصر الدين الألبانى (٢١/١) .

(٤) الفوائد المشوق : ٥٦ - ٦٦ .

عبد البر في جامع العلم ٩١/٢ وابن حزم في الأحكام ٨٢/٦ (١) .
واحد كابن القيم - في جلالة قدره في علم الحديث - لا يمكن أن يصدر
عنه مثل هذه المفوات في هذا الفن فن معرفة صحيح الحديث من ضعيفه من
موضوعه ، ولا تخرج إلا عن واحد بعيد عن هذا الميدان .

* * *

وهكذا أجدني مطمئنا إلى أن هذا الكتاب الذى بين أيدينا المعنُون
بـ « الفوائد المشوق » لا يمكن أن يكون لابن القيم . وأما ما يذهب إليه بعضهم
أن هذا الكتاب يمكن أن يكون ألفه قبل اتصاله بأستاذه ابن تيمية (٢) فهذا مالا
حاجة بنا إلى تكلفه . وكان يمكن أن يكون وارداً لو أن نسبة هذا الكتاب كان
مقطوعاً بها لابن القيم ، أما وقد استبان عدم صحة هذه النسبة فلا حاجة إلى
ذلك . ولو سلمنا - فرضاً - أن ابن القيم ألف هذا الكتاب قبل لقاء شيخه
ابن تيمية لكان - كما قال الأستاذ أبو زيد : (أشار إليه في معرض بحثه وقرّر
الرجوع عنه ، ونبه على ذلك حتى لا يُعْتَرَّ به كما هو دأب أهل العلم في هذا
وهو مقتضى النصيحة في سبيل الله نصيحاً للأمة وتوجيهاً لها) (٣) .

ومما يقطع - أخيراً - بزيف هذه النسبة إلى ابن القيم ما شهد به الأستاذ
الثقة الشيخ أحمد محمد شاكر . قال رحمه الله : « وقد اتصل بى أن النسخة
الخطية التى طبع عنها هذا الكتاب كانت نسبته فيها إلى ابن القيم مكتوبة عليها
بخط جديد غير خط الأصل ؛ فقبل لطابعه : لا تنسبه لابن القيم فلعل كاتب
هذه لم يتحرر النسبة ، وخصوصاً أن الكتاب غير معروف في كتب ابن القيم ،
فأبى ونسبه إليه ، فحسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) . وهذه شهادة لها قدرها من

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى : ٧٣/١ ، وانظر عدة ألفاظ له أخرى في نفس
السلسلة : ٧٤/١ - ٧٩ .

(٢) انظر ابن قيم الجوزية حياته وآثاره : ١٨٥ .

(٣) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره : ١٨٥ .

(٤) مجلة المنار - المجلد ١٩ ، عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م - ص ١٢٠ ، وقد أوردنا مقالة الأستاذ

أحمد شاكر كاملة فيما سبق صفحة : ٦ ، ٧ .

عالم محقق ، ورجل عمل بالقضاء قاضيا شرعيا وعاصرا نشر هذا الكتاب .
ولا يخفى ما في آخر كلماته من الشعور بالمرارة والألم .

* * *

هذا عن نسبة الكتاب إلى ابن القيم . وأما تسميته بـ « الفوائد المشوق »
إلى علوم القرآن وعلم البيان ، فهذه تسمية لاشك مخترعة ، ويؤيد ذلك أن نشره
نشره مرة أخرى - هو هو - تحت عنوان آخر هو « كنوز العرفان في أسرار
وبلاغة القرآن » .

* * *

فإذا كان الأمر كذلك . فما هذا الكتاب الذي بين أيدينا ؟ ومن
صاحبه ؟

وقد هداني الله - وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله - إلى الإجابة
عن هذا السؤال من خيط دقيق جدًا داخل الكتاب لا يكاد يكون ملحوظًا .
وهو عنوان القسم الحادي والعشرين من أقسام فنون المعاني . فقد جعله
بعنوان : « الاحجاج النظري » ، وقال فيه : (وبعض أهل هذا الشأن يسميه
« المذهب الكلامي » . وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضرب من
المعقول . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ وقوله ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ ، ومنه قول الشاعر :

جَرَى الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ فَلَا تُلْمِ وَلَا مَلَامَ عَلَى مَا خُطُّ بِالْقَلَمِ (١)

لفت نظري هذا العنوان الذي اختاره صاحب الكتاب « الاحجاج
النظري » ، وقوله بعدها : « وبعض أهل هذا الشأن يسميه المذهب الكلامي » .

(١) الفوائد المشوق : ١٣٦ .

وجال في نفسي أنى قد قرأت مثل هذا الكلام قبل الآن ، وفي غير هذا الكتاب !!
نعم .. لقد مررت به في تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى المتوفى
سنة ٧٤٥ هـ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُوتُكُمْ بُرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] يقول أبو حيان : « هذا
النوع عند علماء البيان يسمى « الاحتجاج النظرى » وهو أن يذكر المتكلم معنى
يستدل عليه بضروب من المعقول نحو : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾
[سورة الأنبياء : ٢٢] . ﴿ قُلْ يُخَبِّرُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة يس : ٧٩]
﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ ﴾ [سورة يس : ٨١] وبعضهم
يسميه المذهب الكلامى . ومنه قول الشاعر :

جَرَى الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ فَلَا تُلْمِ وَلَا مَلَامَ عَلَى مَا حُطُّ بِالْقَلَمِ ^(١)

وواضح من مقارنة كلام أبى حيان بما فى طبعة « الفوائد المشوق » التطابق
شبه التام بين الاثنين .

ونص أبى حيان - هذا - كان قد لفت نظرى من قبل فى دراستى السابقة
للماجستير عن « البلاغة عند أبى حيان الأندلسى فى تفسيره البحر المحيط » وعلقت
عليه بقولى : « وقول أبى حيان هنا (وبعضهم يسميه المذهب الكلامى) يوحى
بأن الأشهر هو مصطلح (الاحتجاج النظرى) ولكن الأمر بعكس ذلك فالمشهور
الذى عليه العلماء تسميته بالمذهب الكلامى . وقد حاولت معرفة من استخدم
مصطلح الاحتجاج النظرى من علماء البيان ، فلم أعثر على ذكره إلا لدى شيخ
أبى حيان « ابن النقيب » كما فى نص السيوطى الذى سبق ذكره ^(٢) .

ونص السيوطى هذا الذى أشير إليه هو قوله فى شرحه على منظومته
فى علم المعانى والبيان أن صاحب تسمية هذا الفن بالمذهب الكلامى « الجاحظ »
ثم قال بعدها : « وسماه ابن النقيب الاحتجاج النظرى » ^(٣) .

(١) تفسير البحر المحيط : ٨٩/٣ .

(٢) البلاغة عند أبى حيان الأندلسى فى تفسيره البحر المحيط : مخطوط بمكتبة دار العلوم - جامعة
القاهرة .

(٣) شرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان للسيوطى ص ١٢٣ .

أعدت النظر مرة تلو الأخرى في نص السيوطى هذا ، والسيوطى من المتأخرين وكان مهتمًا بالجمع والتدقيق وضبط المصطلحات . وكونه يقطع بأن « المذهب الكلامى » لم يسمه بهذه ، التسمية « الاحتجاج النظرى » إلا ابن النقيب ، فهذا شئ يثير الاهتمام !

وهنا طرق ذهنى السؤال : إذا لم يكن أحد غير ابن النقيب استخدم مصطلح « الاحتجاج النظرى » فلم لا يكون هذا الكتاب المسمى بـ « الفوائد المشوق » هو نفسه كتاب ابن النقيب ؟

وكان على التحرى من صدق مقولة السيوطى السابقة أنه لم يسم « المذهب الكلامى » بهذه التسمية « الاحتجاج النظرى » إلا ابن النقيب فكان أن تتبع ما وصلت إليه يدى من كتب البلاغة التى بين أيدينا اليوم ^(١) فلم أجد فى واحد منها إطلاق تسمية « الاحتجاج النظرى » على « المذهب الكلامى » إلا فى هذا الكتاب المسمى بالفوائد المشوق ^(٢) .

جعلنى هذا أصغى بعض الشئ لما هجست به نفسى : أن هذا الكتاب المسمى بالفوائد ما هو إلا مقدمة ابن النقيب فى علم البيان التى ذكرها أبو حيان الأندلسى فى مقدمة تفسيره البحر المحيط عند حديثه عن الوجه الثالث من الوجوه التى يكون منها تفسير كلام الله عز وجل وهو « وجه الفصاحة والبلاغة » أو بعبارة أبى حيان : « كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح » قال أبو حيان : « ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع . وقد صنّف الناس فى ذلك تصانيف كثيرة وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد ابن سليمان النقيب . وذلك فى مجلدين قدمهما أمام كتابه فى التفسير ، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن حازم ابن محمد بن حازم الأندلسى الأنصارى القرطاجنى مقيم تونس المسمى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء » ^(٣) .

(١) وانظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٧/١ .

(٢) وجدت صاحب « الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة » : محمد بن على بن محمد الجرجاني

المتوفى سنة ٧٢٩ هـ يسمّى فى « المذهب الكلامى » . « بالمهاجاة » ، انظر الإشارات والتنبيهات : ٢٨٠ .

(٣) البحر المحيط : ٦/١ .

وقد قوى ما هجس في نفسى هذا التشابه الكبير بين ما ساقه أبو حيان في البحر المحيط من مادة بلاغية وبين ما في هذا الكتاب المسمى بالفوائد المشوق .
ومن أمثلة ذلك : ما ذكره أبو حيان عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ . قال أبو حيان : وفي قوله : ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ نوع من البديع يسمى « التتميم » وهو إرداف الكلام بكلمة يرفع عنه اللبس وتقربه للفهم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ ^(١) . وهذا التعريف يتطابق مع ما في الفوائد المشوق ^(٢) . وهذا التعريف للتتميم لم أجده في واحد من كتب البلاغة التي بين أيدينا إلا في هذا الكتاب وفي تفسير البحر المحيط .

ومن ذلك أيضًا ما ذكره أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أنه فيه نوع من أنواع البديع يسمى (التلميح) . قال أبو حيان « وقوله : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ فيه نوع من أنواع البديع يسمى التلميح ^(٣) . وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة . أو ما يجرى مجرى المثل . ومنه قول يسار ^(٤) بن عدى حين بلغه قتل أخيه وهو يشرب الخمر :

اليوم خمر ، ويبدو في غدٍ خبرٌ والدهر ما بين إنعام وإيأس ^(٥)

وهذا الذى ذكره أبو حيان عن « التلميح » موجود في « الفوائد المشوق » ^(٥) .

(١) البحر المحيط : ١١٧/٢ .

(٢) انظر الفوائد المشوق : ٩٠ .

(٣) كذا في مطبوعة البحر المحيط : (التلميح) وهو تصحيف .

(٤) كذا في مطبوعة البحر . ويبدو أنه تصحيف « بشار » . وللأسف فمطبوعة البحر المحيط مليئة بمثل هذه التصحيفات . وأسأل الله أن يمتنى على إخراج هذا التفسير إخراجًا علميًا دقيقًا ، وأن يظهر قريبًا الجزء الأول منه محققًا .

(٤) البحر المحيط : ٨٥/٥ .

(٥) انظر الفوائد المشوق : ١٦٢ .

ومن التقارب الكبير بين ما في البحر المحيظ وبين ما في « الفوائد المشوق » ، ما ذكره أبو حيان عند قوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ [سورة غافر : ٢٨ ، ٢٩] . قال أبو حيان : « وقال صاحب التحرير والتحجير : هذا نوع من أنواع علم البيان تسميه علماؤنا « استدراج المخاطب » . وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى ، والقوم على تكذيبه ، أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له وأنه من أتباعه ، فجاءهم عن طريق النصيح والملاطفة فقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ ولم يذكر اسمه بل قال : « رجلاً » ، يوهم أنه لا يعرفه ولا يتعصب له . ﴿ أن يقول ربي الله ﴾ ، ولم يقل : « رجلاً مؤمناً بالله » أو « هو نبي الله » ، إذ لو قال شيئاً من ذلك لعلموا أنه متعصب ، ولم يقبلوا قوله ، ثم أتبعه بما بعد ذلك ، قدم قوله : ﴿ وإن يك كاذباً ﴾ موافقة لرأيهم فيه ، ثم تلاه بقوله : ﴿ وإن يك صادقاً ﴾ ولو قال : « هو صادق » ، وكل ما يعدكم ، لعلموا أنه متعصب وأنه يزعم أنه نبي وأنه يصدقه ، فإن الأنبياء لا تخل بشيء مما يقولونه ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق وهو قوله : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ انتهى ^(١) .

« وصاحب التحرير والتحجير » - هذا - الذي ذكره أبو حيان هو نفسه شيخه ابن النقيب ، وكتابه « التحرير والتحجير » هو تفسيره الكبير للقرآن الكريم واسمه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير » ^(٢) والذي جعل له مقدمة كبيرة في علم البيان واشتهرت بمقدمة ابن النقيب .

(١) البحر المحيظ : ٤٦١/٧ - ٤٦٢ . وقابل بالفوائد المشوق : ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) انظر ما يأتي ص : ٣٦ .

وقد ذكر هذه المقدمة غير أى حيان منهم الزركشى الذى وصفها - مثل وصف أى حيان - بأنها أجمع ما صنف فى علم الفصاحة والبيان . وذلك عند حديثه عن « معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح » قال الزركشى : « ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع . وقد صنف الناس فى ذلك تصانيف كثيرة وأجمعها ما جمعه الشيخ شمس الدين محمد بن النقيب مجلدين ، وقدمهما أمام تفسيره ، وما وضعه حازم الأندلسى المسمى بمنهاج البلغاء وسراج الأدباء .. » ^(١) . وهذه المقدمة ذكرها ابن السبكى من مصادره فى تأليف « عروس الأفراح » ^(٢) .

وقد لحظ هذا التشابه الكبير بين مافى البحر المحيط من مادة بلاغية وبين كتاب « الفوائد المشوق » الدكتور المحتسب فى بحثه للدكتوراه عن « منهج أى حيان فى التفسير » وحكم بأنه من المصادر البلاغية التى لم يذكرها أبو حيان فى مقدمة كتابه بل نقل عنه دون تصريح باسمه ^(٣) .

* * *

هذا التشابه الكبير بين مافى تفسير البحر المحيط وكتاب « الفوائد المشوق » وانفراد صاحب هذا الكتاب بمصطلح « الاحتجاج النظرى » جعلنى أطمئن بعض الاطمئنان إلى ما هجست به نفسى أن ما بين يديّ من كتاب « الفوائد المشوق » هو نفسه مقدمة شيخ أى حيان « ابن النقيب » .

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٣١١/١ .

(٢) انظر : عروس الأفراح : ٣١/١ .

(٣) انظر منهج أى حيان فى تفسيره البحر المحيط . رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ص : ٢٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ . ومن المفارقة أننى وفضت هذا رأى من قبل ، وذهبت إلى غير مذهب إليه الدكتور المحتسب . انظر : البلاغة عند أى حيان الأندلسى : ٦٩ . وها أنا أعود اليوم بعد سنوات إلى ما كنت رَدَدْتُه من قبل ! .

غير أن هذا لم يكن عندي كافياً للوصول إلى درجة اليقين فصرت أتلتمس ذكر « ابن النقيب » ومن نقل عنه لعل أجد فيه ما يشفى . وقد كان محمد الله وتوفيقه . كان في بعض ذلك شيء من الطرافة . وهو ما وقع لي من نص آخر عند السيوطي في حديثه عن « التورية » من فنون البديع . قال السيوطي « حكى بعضهم في التورية قولاً نادراً فقال : هي أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يرددها بعينها ، ويعلقها بمعنى آخر . نحو « مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته » فجاء بلفظ الجلالة مضاعفاً إليه ثم جاء به مبتدأ مثل قوله : « أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال » الأول : متعلق بتقوم ، والثاني : خبر رجال . كذا أورده الأندلسي نقلاً عن ابن النقيب في تفسيره .. قلت : الظاهر أن هذا القول تصحف على ناقله ، فإن هذا هو النوع المسمى بـ « الترديد » السابق في الإطناب فتحرّف على الناقل « الترديد » بـ « التورية » . ثم رأيت في « المصباح » لابن مالك التمثيل بالآية الأولى للترديد فصح ماقلته ^(١) .

يرحم الله السيوطي فقد شفى نفسى بكلامه هذا ! وهذا القول النادر في تعريف التورية الذي أشار إليه السيوطي كنت قد مررت به وتوقفت عنده في « الفوائد المشوق » ^(٢) ، وعلقت عليه بهامش نسختي : أنه يخالف ما عرف في ضبط حدّ « التورية » ، وهاهو نص السيوطي يقرر أن صاحب هذا المذهب الغريب في تعريف « التورية » هو ابن النقيب .

أعدت النظر في نص السيوطي السابق . وهجس في نفسى أنه يريد بالأندلسي - هنا - أبا جعفر الأندلسي ، وأنّ هذا النص يمكن أن يكون موجوداً في شرحه على بديعية رفيقه ابن جابر الشهيرة ببديعية العميان . فطلبت

(١) شرح عقود الجمان : ١١٥ .

(٢) الفوائد المشوق : ١٣٦ .

هذا الشرح المعروف بالحلة السَّيِّرا في مدح خير الورى « ووجدت له عدة نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكان أن عثرت - بحمد الله وتوفيقه - على النقل الذى نقله السيوطى . وثبت لى أن الأندلسى هذا هو أبو جعفر الأندلسى أحمد ابن يوسف بن مالك الرُّعَيْنى الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

وبعد أن ساق أبو جعفر حد « التورية » المشهور - من أنها إطلاق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، والمراد البعيد - قال : « وهذا الذى قرَّرنَاهُ فى حد التورية هو الذى درج عليه الناس ، وقد ذكر ابن النقيب فى مقدمة تفسيره قولاً نادراً فى التورية فقال : « التورية أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يردّها بعينها ويلحقها بمعنى آخر . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ حَتَّى نُوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ ﴾ ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿ فجاء بلفظ الجلالة مضاعفاً ، ثم جاء به مبتدأ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ... ﴿ جاء بيعلمون أولاً منفياً ثم جاء به مثبتاً . ومنه قوله تعالى : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى الْقَوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ ، فيه رجال ﴿ « ففيه » الأول متعلق بأحق . والثانى فى موضع خبر المبتدأ الذى هو « رجال » (١) .

وهذا النص الذى سقته يزيد فائدة على نص السيوطى السابق أنه قرَّر أن ذلك القول فى مقدمة تفسير ابن النقيب . فانضاف هذا - فى نفسى - إلى ما سبق وهدأت ثورة الشك عندى ، وأصبح شبه متقرَّر عندى أن ما بين يدى من مطبوعة « الفوائد المشوق » ماهى إلا مقدمة الشيخ ابن النقيب . وهذا القول النادر الذى نسبه أبو جعفر الأندلسى إلى ابن النقيب فى تعريف التورية فى الحقيقة ليس إلا نتاج التحريف من ناسخ مقدمة ابن النقيب . والصواب كما ذهب إليه السيوطى أنه « الترديد » لا « التورية » فهذا حده المعروف به فى كتب علماء البلاغة (٢) ، وأنه تصحف على الناسخ من

(١) الحلة السَّيِّرا فى مدح خير الورى : ورقة ١٥٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم : ٢٨٢ بلاغة) .

(٢) انظر : تحرير التحرير : ٢٥٣ ، وبديع القرآن : ٩٦ ، والبرهان فى علوم القرآن : ٣٠١/٣ ، والإتقان فى علوم القرآن : ٢٠١/٣ ، وشرح عقود الجمان : ٧٣ . وانظر غيرها فى معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ١٢٨/٢ - ١٣٢ .

« التريد » إلى « التورية » وهذا يكشف لنا عن أن هذا التصحيف في أصل مقدمة ابن النقيب المخطوط كان قديماً جداً من زمن أبي جعفر الأندلسي الرعيني المتوفى سنة ٧٧٩ هـ وهو تصحيف « مبارك » . له من الفضل على - في توثيق نسبة هذا الكتاب - ماله !! .

ومن النقول الأخرى عن ابن النقيب ما ساقه السيوطي في الإتيان عند حديثه عن التضمين . قال السيوطي : « ومثله ابن النقيب وغيره بإيداع حكايات المخلوقين في القرآن كقوله تعالى حكاية عن الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » . وعن المنافقين : « أنؤمن كما آمن السفهاء » ، « وقالت اليهود .. » ، « وقالت النصارى ... » . قال : « وكذلك ما أودع فيه من اللغات الأعجمية » ^(١) .

وهذا النقل في « الفوائد المشوق » ^(٢) . ويلاحظ أن صدر كلام السيوطي ينسب القول بإيداع حكايات المخلوقين في القرآن إلى ابن النقيب وغيره ، وأما عَجَزُ كلامه فيقطع بأن القائل بأن ما في القرآن من اللغات الأعجمية من باب « الإيداع » هو ابن النقيب وحده . وهذا مطابق للفظ « الفوائد المشوق » .

وما يستأنس به أن ما بين أيدينا مقدمة لأحد الكتب المصنفة في التفسير أنه ختمها بفصل تحدث فيه عن اشتقاق ألفاظ (القرآن ، والسورة ، والآية ، والكلمة ، والحرف) وبيان معانيها . واعتذر عن تأخيرها ذلك إلى هذا الموضع بقوله : « وقد كان ينبغي أن يكون مقدماً في أول الكتاب ذكر ما اشتق منه القرآن والسورة ، والآية ، والكلمة ، والحرف وبيان معانيها .. » ^(٣) وهذا يلام أن يكون ما بين أيدينا مقدمة بين يدي تفسير للقرآن كصنيع الكثير من أئمة التفسير .

(١) الإتيان : ٢٧٠/٣ ، وذكره في معترك الأقران : ٣٨٨/١ = ٣٨٩ . وذكره الزركشي في البرهان : ٣٤٤/٣ .

(٢) الفوائد المشوق : ١١٧ - ١١٨ .

(٣) الفوائد المشوق : ٢٤٤ .

ويقوى أن هذه مقدمة في علوم البلاغة للمعاونة على تفسير القرآن أنه استهل خطبة كتابه بالإشارة إلى احتواء القرآن على « ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة وأنواع الجزالة وفنون البيان وغوامض اللسان ، وحسن الترتيب والتركيب وعجيب السرد وغريب الأسلوب وعدوبة المساغ وحسن البلاغ ، وبهجة الرونق وطلاوة المنطق » ^(١) . وأشار إلى أنه لا يعرف فضل القرآن إلا من عرف كلام العرب وعرف فنون البلاغة وضروب الفصاحة وأن هذا الشخص هو الذى يمكنه أن ينظر فى القرآن ويشعر بتميزه وتفردّه عن غيره من الكلام . ثم قال بعد ذلك : « وسنورد فى كتابنا هذا أصولاً مؤصلة وفوائد مفصلة من علم البيان وما ورد نظيره فى القرآن ما تقف عليه ويعجبك عند النظر إليه » ^(٢) ثم قال : « ومن لم يعرف هذا العلم كان عن فهم معانى الكتاب العزيز بمعزل ولم يقدّم ببعض حقوق المنزّل والمنزّل . ومن وقف على هذه الأصول التى أصلتها والفصول التى فصلتها ظهر له مصداق هذه الدعوى ، وأخذ من التوصل إلى معرفة هذا العلم بالسبب الأقوى وحسن عنده موقعه وعظم فى نفسه محله وموضعه وخالطت قلبه بشاشة رونقه وحليت فى عينه نضارة نظائره ، وحسن موقفه » ^(٣) .

ونجدّه يصرح بغرضه من وضع هذا الكتاب فيقول : « ... إذ ليس غرضنا فى هذا الكتاب إلا إثبات ما وقع فى الكتاب العزيز من فنون الفصاحة وعيون البلاغة وبدائع البديع أو ما يجرى مجرى ذلك » ^(٤) . ويقول فى موضع آخر : « إذ الغرض من هذا الكتاب معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان وأصناف البديع وفنون البلاغة وفنون الفصاحة وأجناس التجنيس » ^(٥) . وكل هذا يقوى أن هذا مقدمة بين يدي تفسير القرآن الكريم .

(١) الفوائد المشوق : ٥ .

(٢) الفوائد المشوق : ٧ .

(٣) الفوائد المشوق : ٨ .

(٤) الفوائد المشوق : ٢٢٥ .

ومن كل ما سبق أجدني مطمئناً إلى أن ما نشر تحت عنوان « الفوائد المشوق » أو « كنوز العرفان » منسوباً إلى الإمام ابن قيم الجوزية هو في حقيقته مقدمة الشيخ ابن النقيب في علوم البلاغة التي جعلها أمام تفسيره الكبير للقرآن الكريم . والحمد لله أولاً وآخراً .

* * *

٢ - ابن النقيب (٥)

هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين ، العلامة جمال الدين البَلْخِي الأَصْل ، المَقْدِسِي (١) ، الحَنْفِي (٢) ، الشهير بابن النقيب .

مولده :

ولد بالقدس في منتصف شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة (٦١١ هـ) ، وذكر صاحب « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » أن ميلاده ، كان في نصف شعبان سنة إحدى وعشرين وستمائة (٣) ، وذكر بعده القول السابق في ميلاده سنة إحدى عشرة وستمائة .

وصفه :

وصفه الحافظ الذهبي بأنه « الإمام القاضي المفسر العلامة الزاهد » (٤) ، وقال عنه في موضع آخر : « كان إماماً زاهداً عابداً مقصوداً بالزيارة متبركاً به أماراً بالمعروف كبير القدر » (٥) . ووصفه صاحب « الجواهر المضية » بأنه

(٥) ترجمة ابن النقيب شبه مقتضبة عند من ترجم له . انظر : معجم الشيوخ المعجم الكبير ، للذهبي : ١٩٣/٢ ، والجَبَر في خير مَنْ غَبَرَ : ٣٩٢/٣ - ٣٩٣ ، والمعين في طبقات المحدثين : ٢٢٣ ، والوفاء بالوفيات : ١٣٦/٣ ، وقَوَاتِ الوَفَيَات : ٤٣١/٢ ، والبداية والنهاية : ٤/١٤ - ٥ ، والجواهر المضية : ١٦٥/٣ - ١٦٦ ، والنجوم الزاهرة : ١٨٨/٨ ، والدليل الشافي على المنهل الصافي : ٦٢٥/٢ - ٦٢٦ ، وطبقات المفسرين للسيوطي : ١٠٠ ، وحسن المحاضرة : ٤٦٧/١ ، والأنس الجليل : ٢١٧/٢ ، وطبقات للمفسرين للدواودي : ١٤٤/٢ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك : ٨٨١/١ ، وشذرات الذهب : ٤٤٢/٥ ، والفوائد البهية : ١٦٨ ، والأعلام : ١٥٠/٦ .

(١) في مطبوعة معجم الشيوخ للذهبي : ١٩٣/٢ في نسبته : (الدمشقي) بدلاً من المقدسي . وهذا غريب لم يذكره غيره ، وأنا أظن أنه قد لحق أصل كتاب الذهبي شيء من تحريف الشَّاش ، أو أنه تحريف مطبعي حديث أو غير ذلك ، والكلمتان : (الدمشقي ، والمقدسي) قريتان في رسمهما فيسهل تصحيف إحداهما للأخرى . والله أعلم بما كان .

(٢) وقع في ترجمته في شذرات الذهب : ٤٤٢/٥ ، أنه حنبل . وهذا تحريف ، والصواب أنه (حنفي) وهو مذكور في كتب طبقات الحنفية السابق الإشارة إليها .

(٣) الأنس الجليل : ٢١٧/٢ . وانظر الفوائد البهية : ١٦٩ .

(٤) معجم الشيوخ : ١٩٣/٢ .

(٥) العبر : ٣٩٣/٣ .

« كان أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر ، لا يخاف من ذى سطوة ، أنكر على الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ^(١) ، وقال له : أنت ظالم لا تخاف الله ، فاحتمله وهابه وطلب رضاه » ^(٢) .

ووصفه الصفدى بأنه « كان صالحاً زاهدا متواضعا عديم التكلف » ^(٣) .

ووردت هذه العبارة بنصها فى مطبوعة الشيخ محبى الدين عبد الحميد لفوات الوفيات لكن مع تحريف مفسد للمعنى ، فبدلاً من قوله « عديم التكلف » ورد فيها « عظيم التكلف » ^(٤) .

وقال عنه مؤرخ القدس مجير الدين : « وكان الناس يقصدون زيارته للقدس ، ويتبركون بدعائه » ^(٥) .

هذا عن صفاته المعنوية ، أما عن صفاته الجسمية فقد حفظ لنا الداودى من وصفه أنه كان بعينه شئ من الضعف ^(٦) .

شيوخه :

ذكر الذهبى فى معجمه أن ابن النقيب روى الحديث عن يوسف المَخِيلِى ^(٧) . و « يوسف » - هذا - هو أبو الفضل يوسف بن عبد المعطى ابن منصور بن نجا بن منصور الغسانى الاسكندرانى المالكى . و « المخيلى » نسبة

(١) علم الدين سنجر الشجاعى المنصورى كان من ممالك قلاوون وترقى حتى ولى شد الدواوين ، ثم نيابة دمشق وكثر ظلمه ، وقتل سنة ٦٩٣ هـ . (النجوم الزاهرة : ٥١/٨) .

(٢) انظر الجواهر المضية : وقد ذكر أنه نقل هذا عن تاريخ شيخه قطب الدين ، والإربلى فى معجم شيوخه ، وانظر طبقات المفسرين للداودى : ١٤٥/٢ .

(٣) الوافى بالوفيات : ١٣٧/٣ .

(٤) فوات الوفيات : ٤٣١/٢ .

(٥) الأنس الجليل : ٢١٧/٢ .

(٦) انظر طبقات المفسرين للداودى : ١٤٥/٢ .

(٧) معجم الشيوخ : ١٩٣/٢ .

إلى « مَخِيل » ذكر الذهبي أنها من بلاد برقة ^(١) . روى عن الحافظ السلفي
وجاعة وكان من أكابر بلده ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستائة
(٦٤٢ هـ) ^(٢) .

وقد وقع لي ذكر ابن النقيب في كتاب « طبقات الأولياء » لابن الملقن
سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المصري المتوفى ٨٠٤ هـ ، عند
ذكره لسلسلته في لبس خرقة التصوف ^(٣) . وفيها أن ابن النقيب شيخ شيخه
في هذه السلسلة ، وأن ابن النقيب لبس خرقة التصوف هذه عن شهاب الدين
السهورودي . يقول ابن الملقن : « ولبستها أيضا من الشيخ المعتقد المعمر رضى
الدين أبي محمد الحسين بن عبد المؤمن بن علي الطبري سبط الإمام محب الدين
الطبري سادس عشر جمادى الأولى من سنة خمس وخمسين وسبعمائة بزوايته
بيولاقي . قال : ألبسني الإمام مفتي القرن جمال الدين محمد بن سليمان بن
حسن بن حسين عرف بابن النقيب سنة ثمان وتسعين وستائة . قال الشيخ :
ألبسني شهاب الدين السهورودي عن عمه أبي النقيب ... » ^(٤) .

وهذا النص يثبت لقيا ابن النقيب لشيخه العارف شهاب الدين السهورودي
وأخذه طريق السلوك عنه . والسهورودي - هذا - هو عمر بن محمد بن عبد الله
أبو حفص شهاب الدين ، فقيه شافعي مفسر ، وهو صاحب كتاب « عوارف
المعارف » ولد بسهرورد عام ٥٣٩ هـ ، وتوفي ببغداد ٦٣٢ هـ ^(٥) .

تلاميذه :

سبق أن ذكرنا أن الشيخ ابن النقيب روى الحديث الشريف وله إسناد

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : (٧٣/٥) « مَخِيل » بالفتح ثم الكسر ، وادى مخيل وهو حصن
قرب بَرْقَة بالمغرب .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢٣ / ١١٦ - ١١٧ ، وشذرات الذهب : ٢١٦/٥ .

(٣) من تقاليد الصوفية حيث يقوم الشيخ باللباس المرید هذا اللباس ، ولهم في ذلك تعليقات .
انظر معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني : ١٧٨ .

(٤) طبقات الأولياء : ٥٠٤ .

(٥) في ترجمته انظر وفيات الأعيان : ٤٤٦/٣ - ٤٤٨ . والسهورودي - هذا - شيخ ابن النقيب
غير السهورودي الفيلسوف يحيى بن حبشي المقتول بتهمة الزندقة ٥٨٧ هـ . فليتبه !

فى ذلك ، وقد جلس إليه غير واحد من أئمة زمانهم فى صناعة الحديث منهم الحافظ الذهبى الذى أخذ عنه وأورد ذكره فى معجمه الكبير ^(١) وأثنى عليه ، ويسميه فيه اختصارا : « محمد بن سليمان البلخى » . قال الذهبى : « قرأت على محمد بن سليمان البلخى ، وعلى عبد المؤمن بن خلق التوفى قالا : أنا يوسف ابن عبد المعطى ، أنا أبو طاهر السلفى ... عن زر عن علفى ، قال : « أحب الكلام إلى الله عز وجل أن يقول العبد وهو ساجد » ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ^(٢) .

وقد صرح الذهبى أنه سمع منه الحديث مدة مقامه بمصر ^(٣) .

ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه الحديث علم الدين البرزالى القاسم بن محمد بن يوسف ^(٤) المحدث المؤرخ ، وأصله من أشبيلية . ومولده بدمشق وزار مصر والحجاز ، وكان فاضلا فى علمه وأخلاقه حلو المحاضرة . و « البرزالى » نسبة إلى (برزالة) من بطون البربر ^(٥) ، وتوفى عام ٧٣٩ هـ .

ومن تلاميذه أيضا فى الحديث ابن سامة ^(٦) وهو محمد بن عبد الرحمن ابن سامة بالسين المهملة مخففا ، ولد سنة ٦٦٢ هـ ، وعنى بالحديث وسمع من علمائه بمصر وارتحل فى سماع الحديث . مات بالقاهرة فى ذى الحجة ٧٠٨ هـ .

ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه أبو حيان الأندلسى الإمام الكبير فى النحو واللغة والتفسير ، ويبدو أنه أخذ عنه التفسير ^(٧) .

(١) المعجم الكبير : ١٩٣/٢ .

(٢) المعجم الكبير : ١٩٣/٢ - ١٩٤ .

(٣) الشيخ ابن النقيب كان قد وفد إلى مصر من القدس ، ودرس بالمدرسة العاشورية بالقاهرة . ثم تركها وانقطع بالجامع الأزهر . ويبدو أن ذلك كان للعبادة والتخلى . ثم غادر مصر عائدا إلى القدس .

(٤) الجواهر المضيق : ١٦٦/٢ ، وطبقات الداودى .

(٥) فى ترجمته ينظر فوات الوفيات : ١٣٠/٢ .

(٦) وقع اسمه فى مطبوعة الدكتور عبد الفتاح الحلو من « الجواهر المضيق » ، « أبى سامة » ، وذكر الدكتور الحلو أن هذا تصرف منه . وقد جانبه الصواب فى ذلك . وانظر فى ترجمة ابن سامة : الدرر الكامنة : ١١٧/٤ - ١١٨ ، وطبقات الداودى :

(٧) البحر المحيط : ١١/١ . وقد ذكر ابن الملقن فى طبقات الأولياء : ٥٠٦ أن أبى حيان =

ومن تلاميذه أيضا شيخ الإقراء في زمانه برهان الدين أبو محمد بن عمر
ابن إبراهيم الجعبرى . وقد نقل عنه الداودى أنه نص على تلمذته لابن
النقيب ^(١) .

* * *

- مؤلفاته :

١ - تفسير ابن النقيب

هو تفسير « التحرير والتحرير لأقوال أئمة التفسير في معانى كلام السميع
البصير، هكذا ورد اسمه عند الحاج خليفة في كشف الظنون . وقال عنه : (وهو
كبير في نيف وخمسين مجلداً . وقد اعتنى به ما لم يعتن بغيره . ذكره الشعرانى .
وقال : ما طالعت أوسع منه) ^(٢) .

ووصفه ابن كثير بأنه (مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من
التفسير ^(٣) . وذكر تلميذه الذهبى أنه فى (تسعة وتسعين مجلداً استوعب
القراءات وأسباب النزول والإعراب وأقوال المفسرين وأقوال الصوفية
وحقائقهم) ^(٤) .

ويبدو أن نسخة هذا التفسير كانت نادرة في زمن الذهبى تلميذ ابن النقيب
حيث قال بعد ذلك : (والنسخة موجود منها ببيت المقدس) ^(٥) . أما صلاح

= ليس خرقه التصوف من ابن النقيب ، وفى نفسى شئ من هذا الكلام فأبو حيان معروف عنه نقده
للادع لجماعة الصوفية ، وكثيرا ماهاجمهم فى ثنايا تفسيره البحر المحيط .

(١) انظر طبقات المفسرين للداودى : ٢٠٢/١ .

(٢) كشف الظنون : ٣٥٨/١ .

(٣) البداية والنهاية : ٤/١٤ - ٥ .

(٤) معجم الشيوخ : ١٩٣/٢ .

(٥) السابق : ١٣٧/٢ .

الدين الصفدى فيذكر أنه كانت منه نسخة في زمانه بجامع الحاكم بالقاهرة وأنه جمع فيه خمسين مصنفًا (١) .

وقال عنه أبو حيان الأندلسي : (هو أكبر كتاب رأيناه صنف في علم التفسير ، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد إلا أنه كثير التكرير قليل التحرير ، مفرط الإسهاب) (٢) .

وذكر البقاعي أنه اطلع عليه ، وأنه في نحو ستين مجلدًا ، وأن ابن النقيب اهتم فيه ببحث المناسبات بين الآيات والصور . يقول موازنًا بين تفسيره - هو - « نظم الدرر » وبين تفسير ابن النقيب : « وبعد أن وصلت إلى سورة الكهف ذكر لي أن تفسير ابن النقيب الحنفى ، وهو في نحو ستين مجلدًا . يذكر فيه المناسبات . وفي خزانة جامع الحاكم كثير منه . فطلبت منه جزءًا فرأيت الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها ، وإلى القصص لا جميع آياتها . ومن نظر في كتابي هذا مع غيره علم النسبة بينهما » (٣) .

وبالتأمل في هذه القول أرجح أن الصواب هو أنه في تسعة وتسعين مجلدًا كما ذكر الذهبي وتؤيده عبارة صاحب البحر المحيط السابقة أنه « يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد » والذهبي وأبو حيان كانا معاصرين لابن النقيب وتعلمذا عليه ونصا على ذلك . ولا يبعد أن يكون قد نُسخَ منه بعد ذلك نسخ أخرى هي التي وصفها الآخرون .

وهذا التفسير توجد قطعة باقية منه بمكتبة الفاتح بتركيا من سورة المدثر حتى آخر القرآن الكريم . وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة (٤) . وبالخزانة العامة بالرباط بالمملكة المغربية جزء آخر يشتمل على تفسير سورة الشعراء

(١) الوافي بالوفيات : ١٣٧/٣ .

(٢) البحر المحيط ٢١١/١ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والصور للبقاعي : ١٠/١ .

(٤) برقم (٧١) تفسير وعلوم القرآن . وقد طلبت تصوير جزء منها ، فبين أن بها بعض التلف

الذى يمنع من التصوير . ووعد القائمون على المعهد بإصلاحه ولنا لمنتظرون .

والتمل والقصص . وكانت بعثة معهد المخطوطات العربية بالكويت في زيارتها إلى المغرب قبل الأحداث الأخيرة قد انتسخت منه صورة ^(١) . وذكرت الدكتورة الصقار في معجمها ^(٢) أن منه قطعة بمكتبة الأوقاف العراقية ببغداد تحت رقم ٢٣١٦ - ٢٣١٧ مجاميع . ولم يشر بركلمان أى إشارة إلى هذا الكتاب ^(٣) .

* * *

أمّا مقدمة ^(٤) هذا التفسير الكبير - والتي أجلوها اليوم بين يدي القراء - فلا أعلم أن لها اليوم أصلاً مخطوطاً ، إلا هذه المطبوعة التي نشرت بعنوان « الفوائد المشوق » أو « كنوز العرفان » ، وقد اجتهدت في البحث عن أصلها المخطوط ولكن دون فائدة . ولعل الأيام تكشف لنا عن هذا الأصل المخطوط ^(٥) .

* * *

(١) عن ثبت المخطوطات التي صورتها بعثة معهد المخطوطات العربية بالكويت إلى المغرب العربي في الفترة من ١٩٧٥/٦/٢٦ - ١٩٧٥/٩/٢٢ .

(٢) معجم الدراسات القرآنية للدكتورة ابتسام الصقار : ٣٢٦ - ط الأولى - بغداد ١٩٨٤ .
(٣) راجعت في هذا أحد الأساتذة العارفين باللغة الألمانية . والجزء الزمني الذي عاش فيه ابن النقيب لم يترجم من كتاب بركلمان حتى كتابتي هذه الكلمات في صدر هذه الطبعة الأولى .

(٤) هناك مقدمة أخرى في التفسير اشتهرت بمقدمة تفسير ابن النقيب ، ويقع بينها وبين مقدمة ابن النقيب التي معنا شيء من اللبس حتى عند بعض القدماء . وابن النقيب الآخر هذا هو محمد بن أبي بكر ابن إبراهيم ، قاضى القضاة فمّس الدين ابن النقيب الحاكم بمحّص ثم طرابلس ثم حلب ، وهو صاحب الإمام النووي ، وكان مولده تقريباً سنة اثنتين وستائة (٦٠٢ هـ) ومات سنة خمس وأربعين وسبعمئة (٧٤٥ هـ) . (انظر في ترجمته : الدرر الكامنة : ٣٩٨/٣ - ٣٩٩ ، ومفتاح دار السعادة : ١٠٠/٢) .
وهناك غير واحد من العلماء قديماً اشتهر بابن النقيب انظر ثبت ذكرهم في معجم المؤلفين : ٢٩/١٤ .
(٥) وصلنتي بعد انتهائي من كتابة هذه الكلمات رسالة من السعودية من أخى الدكتور / محمد

أحمد حسن محمود وفيها يهلمنى بأماكن أخرى لمخطوطات تفسير ابن النقيب وأن هناك مخطوطات له في :-
- مراكش - خزائن ابن يوسف - المغرب - التفسير ١ [١٧٨] ج ١ .
- تونس - المكتبة الوطنية - حسن حسنى عبد الوهاب : ١/١٥ [١٨٤٨٤] ، وأنه جزء في سورة آل عمران .

- تركيا - مكتبة ولى الدين جار الله [٧١] ، [٧٢] ، [٧٣] ، [٧٤] . =

وذكرت الدكتوراة الصفار في معجمها ^(١) أن لابن النقيب رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر بعنوان (رسالة الآيات البينات في تفسير بعض آيات متشابهات القرآن الكريم ، وذكرت أنها برقم (٩٥ مجاميع) ١٤٤٧٩ ، وقد راجعت المكتبة الأزهرية تحت رقم (٩٥ مجاميع) فلم أجد هذه الرسالة ، وتبين لي أن هذا الرقم خطأ وأنه يوجد رسالة تحت رقم (٣٩٥ مجاميع) ١٤٤٧٩ في التفسير من صفحة ٦٢ - ٩٣ . وعُثِنَ لها جامعها بأنها « فوائد من التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير للشيخ جمال الدين بن النقيب » وهذا يختلف عما ذكرته الدكتوراة الصفار ، فالعنوان الذي ذكرته يوحى أنها رسالة مستقلة صنفها ابن النقيب في الآيات المتشابهات . وهذا غير صواب ، والصحيح أن ما في مخطوط المكتبة الأزهرية - هذا - عبارة عن نقول التقطها جامعها من تفسير الشيخ ابن النقيب في تفسير بعض آيات القرآن وفيها حديث عن المحكم والمتشابه والمراد بهما . وبدأت هذه النقول بالحديث عن قوله تعالى من سورة آل عمران : « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ... » وما بعدها .

* * *

٢ - ولابن النقيب قصيدة طويلة قالها على طريقة التصوف سماها « منهاج العارف المتقى ومعراج السالك المرتقى » ، وصفها الداودي بأنها طويلة جداً تدخل في أربعين ورقة ^(٢) .
وفاته :-

ذكرنا - فيما مضى - أن الشيخ ابن النقيب كان قد قدم القاهرة وعمل بالتدريس ثم فارقها عائداً إلى بلده « القدس » ، وهنا يذكر بعض من ترجم له أنه مات وهو في طريق عودته ، ومنهم من يذكر الله أنه عاد إلى القدس واستوطن فيها إلى أن مات في محرم سنة ثمان وتسعين وستمائة (٦٩٨ هـ) عن سبع وثمانين سنة رحمه الله .

= وذكر لي الأخ الفاضل أن المصادر التي عاد إليها لم توضح محتويات هذه الأجزاء ، فجاءه الله خيراً عن هذه الفائدة ، وأسأل الله أن يعينني على استخدام هذه المخطوطات ونشرها والله من وراء القصد وهو نعم الوكيل .

(١) معجم الدراسات القرآنية : ٦٠٨ .

(٢) طبقات المفسرين للداودي : ١٤٥/٢ .

علم تفسير القرآن الكريم هو نواة العلوم الإسلامية جميعاً . عرفه المسلمون قبل أن يعرفوا أى علم آخر . ومنذ بزوغ فجر الإسلام وعناية المسلمين متجهة إلى القرآن الكريم . وقد أرشد القرآن نفسه إلى النظر والتدبر . يقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

[سورة ص : ٢٩]

ولم تكن حاجة المسلمين ماسة إلى من يفسر لهم نص القرآن الكريم ، فالقرآن نزل بلسان القوم ، ﴿ قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٢٨] . وقد بلغ العرب في هذه الفترة الذروة العليا من البلاغة والفصاحة في القول . فجاء القرآن فتحدهم أن يأتوا بمثل أقصر آية مثله فمعجزوا .

وتمر الأيام والسنون ويجعل الله العزة لدين الإسلام ، فيظهر المسلمون على المشركين وينساحون في الأرض فاتحين رافعين راية التوحيد ، ويختلطون بأمم وحضارات جديدة ولغات غير لغتهم العربية ، وكان لهذا أثره على هذه « اللغة الشريفة » فتسرب إليها اللحن والحياذ عن الإعراب . فكان أن سارع علماء المسلمين لوضع قواعد النحو والتصريف واللغة . ومن هنا كان سبق قواعد هذه العلوم لقواعد البلاغة والفصاحة . فرغم تسرب اللحن إلى المنطق العربى - في هذه الآونة ، فإن الذوق العربى المرفه كان باقياً على حاله قبل ذلك . ونحن ما زلنا في جيل الصحابة والتابعين وتابعهم .

ولذا نجد تفاسير القوم - رضوان الله عليهم - غاية في الاختضاب . تكاد تنحصر في بيان غريب من اللفظ أو حكم فقهى أو سبب نزول أو ناسخ ومنسوخ . ولا نكاد نجد في ثنايا تفاسيرهم طول نفس في بيان ما وراء اللفظ

(٥) عَظُمَ هذا المبحث مأخوذاً عن بحثي للدكتوراه عن « بلاغة القرآن عند المفسرين حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، لما فيه من الفائدة في هذا الموضع .

من مسائل الفصاحة والبلاغة التي كان بها القرآن معجزاً . فلم تكن حاجة المسلمين تدعو لذلك ، فعالبهم عرب خالص يدركون هذه المسائل بأذواقهم التي فطروا عليها . ونحن لا نعدم - بين أيدينا - من النصوص ما يبين عن شيء من هذا النوع . فمن ذلك قصة إسلام الصحابي الكريم : الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه فيما نقله ابن إسحق . قال : « كان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه يذلل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه . وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب . وكان الطفيل ابن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها . ومشى إليه رجال من قريش . وكان الطفيل رجلاً شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، فهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، فرق جماعتنا ، وإنما قوله كالسحرة يفرق بين المرء وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته . وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه . قال : فوالله ما زال بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذنى حين غدت إلى المسجد كُرسُفاً ، فرقاً من أن يبلغني من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال فغدت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة . قال : فقممت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله . قال : فسمعت كلاماً حسناً . قال : فقلت في نفسي وأثكل أُمى إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته . فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فتبعته فأتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد ، إن قومك قالوا لي كذا وكذا ، الذي قالوا لي . فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى شددت أذنى به كرسف لئلا أسمع قولك . ثم أبى الله إلا أن يسمعني . فسمعت قولاً حسناً . فاعرض عليّ أمرك ، فعرض عليّ الإسلام فأسلمت وشهدت شهادة الحق ... » (١) .

(١) حياة الصحابة للكاتب د. مصطفى عبد الحاميد : ١٨٤/١ .

فهذا النص يكشف لنا عن ملكة ذوق الكلام والقدرة على التمييز بين حسنه وقبيحه عند هذا الصحابي الكريم ، فهو ناقد بصير بمواقع الجودة والمزية غير خاف عليه ما يشين الكلام أو يقبحه . يظهر هذا جلياً من قوله : « واثكل أمي ، إني لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ... » . فمثل هذا الصحابي لا يحتاج إلى من يشير إليه بمواقع الحسن والجودة في نظم الكلام ، فهو مستغن عن ذلك بما أوتي من ذوق فطري سليق يحكم إليه في المفاضلة بين كلام وكلام . ولهذا أنكر على نفسه هذا الخوف من سماع كلام محمد ﷺ ، فعنده من الملكة ما يمكن أن يحكم به على ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسناً قبله وإن كان غيره تركه . وهو رجل شاعر خبير لبيب . فمثل هذا يكون من العبث أن يتوجه إليه بقصد إرشاده إلى مواقع الحسن والحلاوة في النظم . وإن عملاً كهذا ليشبه من يتجه إلى مبصر سليم العينين يريد أن يأخذ بيده ليعبر به الطريق ! . ومن هنا كان خلو تفاسير السلف الصالح - رضوان الله عليهم - من الحديث عن مسائل البلاغة والفصاحة ، فالقوم لم يكونوا محتاجين إلى مثل هذا الحديث .

نعم لم يكن القوم كلهم على درجة واحدة في إدراك فصاحة القرآن . وهذه طبيعة البشر أن يتباينوا في مقدار المواهب والملكات . بل وجد بينهم من لم يكد يميز بين نظم القرآن ونظم الشعر . إلا أن هذا كان لقلته وندرته لا يكاد يكون مذكوراً . يتحدثنا ابن عبد البر في ترجمة الصحابي الكريم الشاعر عبد الله ابن رواحة أنه وقع على جارية له فرأته زوجته فلامته فأنكر . فقالت له : إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن فالجنب لا يقرأ القرآن فقال :

شَهِدْتُ بِأَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَ
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ حَقَّ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ وَمَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَ

فقلت امرأته : صدق الله وكذبت عيني . وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرؤه « (١) .

فهذه المرأة العربية لم ترزق من الذوق ما تستبين به الفارق بين نظم القرآن ونظم الشعر وهي في زمان شعار أهله وعلمهم الذي يرجعون إليه « الفصاحة » ، وفيه من النساء من هي كالخنساء الشاعرة المشهورة .

وقد دفع خلو تفاسير السلف من الصحابة والتابعين ، من الحديث عن مسائل الفصاحة والبلاغة ، بعض علماء المسلمين إلى حصر علم التفسير في هذه الروايات ، ورفض ما عداها مما أبدعته قرائح المفسرين من الخلف في بيان روعة التعبير القرآني وبلاغته ، واحتجوا في ذلك بأن هذه القواعد البلاغية مستحدثة بعد عهد سلف الأمة الأول فلا حاجة تدعو إليها .

نقل ذلك السيوطي عن الإمام سراج الدين البلقيني (٢) عند تعليقه على ما ذهب إليه الزمخشري في خطبة تفسيره الكشاف من حاجة مفسر القرآن الكريم إلى النظر في علم المعاني والبيان ، وأهمية ذلك له . يقول البلقيني : « وكيف يترجح فنان جَمْعُهُمْ أوراق يسيرة قد وضعا بعد الصحابة والتابعين . وما على الناس من اصطلاح أتى به عبد القاهر واقتفاه السكاكي ولا يقوم لهما في كثير من المقامات دليل . وعلم التفسير إنما يتلقى من الأخبار » (٣) .

(١) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٣ / ٩٠٠ .

(٢) هو شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان الصقلاني الأصل البلقيني المصري الشافعي : يقول عنه السيوطي : « مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة ، ولد في ثاني عشر رمضان سنة (٧٢٤) أربع وعشرين وسبعمائة ، أخذ الفقه عن ابن عدلان والفتى السبكي والنحو عن أبي حيان ، وبرع في الفقه والحديث والأصول ، وانتهت إليه رئاسة المذهب والإفتاء وبلغ رتبة الاجتهاد ... مات في عاشر ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة » . انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١٥٩ . والأعلام للزركلي ٢٠٥/٥ .

(٣) نواهد الأبهكار وشواهد الأفكار للسيوطي - مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٣٣ تفسير الورقة الأولى . وانظر كشف الظنون ١٤٧٦/٢ .

وهذه نظرة جامدة من البلقينى - رحمه الله - فى حصره علم التفسير فى جانب المرويات فقط ورفضه ما عدا ذلك . وهذا القول منه - أظنه - تفرد به بين علماء الأمة . وهذا إمام المفسرين بالمأثور أبو جعفر الطبرى ينقل فى مقدمة تفسيره عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما قوله : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرف العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره » (١) .

فهذه المقولة من ابن عباس رضى الله عنهما تقرر أن هناك نوعاً من التفسير يعرفه العرب ، والمرجع يكون فيه إليهم . والإبانة عن مناحى الجمال والحسن فى نظم القرآن من هذا القبيل . فهذا أمر عرفه العرب وشعروا به ولم يكونوا بحاجة فى زمانهم للإبانة عنه فإذا أتى الخالفون من المفسرين ووجهوا همتهم للإبانة عن هذا الجانب ، بعد أن ضعف هذا الذوق السليقى العربى ، فما ارتكبوا بذلك محرماً من الفعل ، وهم لم يخرجوا بذلك عن حقيقة التفسير بالمأثور . فالحاجة هى التى مست للاهتمام بهذا الجانب . أما السابقون من السلف فلم يكونوا بحاجة إلى مثل ذلك .

وقد توقف السيوطى أمام مقولة البلقينى هذه مفنداً ، وذهب إلى أن الزمخشرى والبلقينى لم يتواردا على محل واحد ، فالزمخشرى ليس بجاحد لما نقل من آثار فى تفسير القرآن بل هو معط لها موضعاً كبيراً من الأهمية ، وإنما مقصوده أن القدر الزائد على التفسير من استخراج محاسن النكت والفقر ، ولطائف المعانى التى تُستعمل فيها الفكر ، وبيان ما فى القرآن من الأساليب ، لا يتبهاً إلا لمن برع فى هذين العلمين ، لأن لكل نوع أصولاً وقواعد ، ولا يُدرَكُ فن بقواعد فن آخر ، والفقيه والمتكلم بمعزل عن أسرار البلاغة ، وكذا النحوى واللغوى ، وقد كان الصحابة يعرفون هذا المغزى بالسليقة فكانوا يعرفون بالطبع وجوه بلاغته كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه . ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين فى ذلك لأنه لم

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن للطبرى - ٧٥/١ .

يكن مجهلها أحد من أصحابه فلما ذهب أرباب السليقة وضع لكل من الإعراب والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع . فكان حكم علم المعاني والبيان كحكم النحو ، ^(١) .

إذن فالعلاقة بين تفسير القرآن وعلوم البلاغة علاقة أصيلة . وكان الأوّل بالباحثين في تاريخ البلاغة أن يعودوا بنشأتها إلى رحاب النص القرآني وتفسيره . وليس كما ذهب جُلّتهم أنها ولدت وترعرعت في رحاب المتكلمين والفلاسفة وأن هذا لم يتخلف في جميع العصور ^(٢) .

نعم .. كان للمتكلمين والفلاسفة أثرهم الكبير الذي لا ينكر في تشكيل صرح البلاغة العربية . لكنه ليس صحيحاً أن علوم البلاغة نشأت في كنفهم وتحت رعايتهم . وإن ما بين أيدينا من نتاج المفسرين ليدحض هذه المقولة ويبين عن العلاقة الحميمة بين التفسير والبلاغة .

لقد عرف المسلمون القرآن قبل أن يعرفوا كتاب الخطابة لأرسطو . وكتاب « مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى شاهد على ذلك » ذلك أن المؤرخين يجمعون على أن إسحق بن حنين الوالد أو حنين بن إسحق الابن كان أحدهما أول من نقل كتاب الخطابة لأرسطو عن اليونانية ، وقد مات الوالد سنة ٢٦٠ هـ . ومات الابن سنة ٢٩٩ هـ ، مع أن أبا عبيدة قد مات سنة ٢١٠ هـ قبل أن يموت الوالد بخمسين عاماً . وإذا صح ما قيل من أنه ألف كتاب « المجاز » سنة ١٨٨ هـ فإن الوالد على فرض قيامه بالترجمة لم يكن قد خط حيثن حرقاً واحداً مما كتب ، وإذن فكل ما ورد في مجاز أبي عبيدة مما تناقله علماء البلاغة من بعد عري صميم ^(٣) .

(١) نواهد الأبهكار ورقة = ٢ . وانظر : كشف الظنون ٢ (١٤٧٦ - ١٤٧٧) .

(٢) انظر : البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين الحول ، بحث ألقاه في الجمعية الجغرافية الملكية

١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .

(٣) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتور رجب البيومي ، ص ٥٠ ، ٥١ .

وقد كان الأستاذ « جون ونسبرو » موفقاً أى توفيق حينما ذهب إلى أن الرابطة بين علوم البلاغة وعلم التفسير أقوى منها بينها وبين علوم الكلام ومباحث الإعجاز . يقول الأستاذ ونسبرو : « والعامل الإضافى والمعقد فى البلاغة هو بالطبع مشكلة الإعجاز مع أن الانشغال بمعنى النص القرآنى سبق بحث تفردته وإعجازه وهو وحده الذى يمكن أن يفسر الاتحاد بين البلاغة والتفسير » ^(١) .

ويقول أيضاً : « تطور المصطلحات الفنية فى علم البلاغة العربية يوضح بشكل يلفت النظر تكييفها التدريجى مع مقتضيات تفسير القرآن الكريم ، فتكاثر الصور البلاغية فى كتابات شراح العصور الوسطى المتأخرين يبدو نتيجة لانشغالهم بمعانى القرآن الكريم أكثر من اهتمامهم بالزخرفة الأسلوبية . ويمكن أن تتبين فى كثير من تلك الصور وجوداً سابقاً لها فى تفسير القرآن على حين يبدو أن بعضاً آخر منها من ابتكار المفسرين المجتهدين » ^(٢) .

وقد قام الأستاذ ونسبرو بإثبات الارتباط القوى بين البلاغة والتفسير بطريقة فريدة يوضحها الدكتور شفيع السيد بقوله : « من جهة موضوعه تناول الباحث قضية ربما لم يفكر فيها معظم المتخصصين فى البلاغة العربية وهى مدى تكييف هذه البلاغة بمتطلبات التفسير القرآنى وقد اختار الكاتب لذلك إحدى الظواهر البلاغية المعروفة وهى ظاهرة اللف والنشر وراح يتتبع أمثلتها لدى مؤلفى البلاغة المختلفين ويكشف عن مدى اختلاط تلك الأمثلة بأمثلة ظاهرة بلاغية أخرى هى التفسير وانتهى إلى أن مصطلح اللف والنشر يرجع فى ميلاده إلى تفسير القرآن الكريم » ^(٣) .

والتماس البلاغة بين سطور التفسير يخلصنا من كثير من سلبيات طريقة

(١) البلاغة وتفسير القرآن الكريم . لجون ونسبرو ، مقال منشور بحوليات كلية دار العلوم ١٩٦٩

م - ١٩٧٠ م ، ص ٢٠٣ ، هامش رقم ٧ .

(٢) السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) السابق ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

التكلمين والفلاسفة في درس البلاغة . حيث يلتبس الباحث صورها مبتدئاً من النص لا من شيء آخر دخیل عليه . والبلاغة - عندى - إن لم تنهض بالذوق واستشعار الباحث لجمال النص فليس من وراء دراستها إلا العناء والكد . وهذا هو حال المتأخرين وجَّهوا همهم لدراسة مجموعة القواعد التى خلفها الشيخان السكاكى والخطيب . وانكبوا عليها درساً وتعليماً ثم بعد هذا العناء لا يستطيع الواحد منهم الوقوف أمام نص أدبى يبين لنا عن أسرار الجمال والحسن فيه « وأصبح الشغل الشاغل لهم التنوق فى البحوث اللفظية والاهتمام بالحوار والجدل فى الألفاظ لا فى الأغراض والمقاصد ، إلى ضعف فى الأسلوب كان أثراً من البيئة الأعجمية فارسية أو تركية أو هندية ، وأتى لكتب هذه حالها أن تصل بدارسها إلى ما يروم من فائدة أو تكون مثلاً يحتذى « إنك لا تجنى من الشوك العنب » ^(١) .

وطريقة التكلمين فى تناول مسائل البلاغة والفصاحة لم تسلم من النقد من قديم فهذا إمام من أئمة البلاغة العربية ، وهو حازم القرطاجنى يقول : « ولا معرج على ما يقوله فى الشيء من لا يعرفه ، ولا التفات إلى رأيه فيه فإنما يطلب الشيء من أهله . وإنما يقبل رأى المرء فيما يعرفه ، وليس هذا جرحة للمتكلمين ، ولا قدحاً فى صناعتهم ، فإن تكليفهم أن يعملوا من طريقتهم ما ليس فيها شطط . والذى يورطهم فى هذا أنهم يحتاجون إلى الكلام فى إعجاز القرآن فيحتاجون إلى معرفة ماهية الفصاحة والبلاغة من غير أن يتقدم لهم علم بذلك فيفزعون إلى مطالعة ما تيسر لهم من كتب هذه الصناعة ، فإذا فرق أحدهم بين التجنيس والترديد وماز الاستعارة من الإرداف ، ظن أنه قد حصل على شيء من هذا العلم ، فأخذ يتكلم فى الفصاحة بما هو محض الجهل بها » ^(٢) .

وهكذا نرى طريقة أصحاب الكلام فى تناول البلاغى لا تفيد شيئاً فى إثراء الذوق ولا تنميته ، فهى موجهة أصلاً لمخاطبة العقل لا الوجدان والشعور ، وقد يشعر القارئ بمتعة عقلية لما تثيره من قضايا فكرية إلا أنه « قلَّ بعد الكدَّ

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغى ، ص ٧ .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى : ٨٦ - ٨٧ .

والنظر أن يظفر بعناء ذوق . والعناء الذوق هو الغاية المرموقة من درس البلاغة ، (١) .

نعم .. العناء الذوق هو الغاية المرموقة من درس البلاغة ، أما الاختصار على الاشتغال بقواعد البلاغة فهو عمل يخرج بالبلاغة عن مجالها ويجعلها علماً معيارياً مثلها في ذلك مثل النحو والصرف . وشتان بين الحقلين . فما أيسر أن تصدر الحكم بالصواب أو الخطأ . أما أن نعلم الآخرين بمزايا نظم واقتراحه عن نظم آخر فما أعسر ذلك ، وقديماً أشار إلى صعوبة ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وعلل له بأن « المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيباً لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقرينة يجد لها في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ... » (٢) .

والتماس هذا العناء الذوق عند أصحاب التفسير من أنجع السبل لتحقيق ذلك فجعلهم من أئمة الفصاحة والبيان أو على أقل تقدير من العارفين بهذه الصناعة ، والمقدرين لها . هذا القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني صاحب « الوساطة » قد يعجب البعض إذا علم أنه معدود من المفسرين وله تفسير كبير (٣) لكنه مفقود للأسف . وهذا أبو هلال العسكري معدود في المفسرين وله تفسير (٤) . وكذا عبد القاهر له تفسير سورة الفاتحة (٥) ، وهذا الزمخشري

(١) البلاغة عند الزمخشري للدكتور مصطفى ناصف : صفحة (ب) من المقدمة . رسالة دكتوراه ، مخطوطة بمكتبة جامعة عين شمس .

(٢) دلائل الإعجاز .

(٣) انظر : طبقات المفسرين للداودي ٤١١/١ .

(٤) انظر : كشف الظنون : ٤٥٣ .

(٥) انظر السابق : ٤٥٤ . وقد عزا كارل بروكلمان إلى عبد القاهر تفسيراً للقرآن بعنوان (درج =

إمام هذا الفن يذكر عن علم التفسير أنه « لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام . والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القُرَّة أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ . والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحيته لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى والبيان وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم يحظ ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه وردَّ وردُّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في حملة الكتاب . وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس درأكا للمحبة وإن لطف شأنها ، متبهاً على الرزمة ، وإن خفى مكانها ، لا كزاً جاسياً ، ولا غليظاً جافياً ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتاضاً غير ريش بتلقيح بنات الفكر . قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف ... » (١) .

(= الدرر) وذكر أن له عدة نسخ مخطوطة ومنه صورة بدار الكتب المصرية وأنه منسوب خطأ إلى الشريف . انظر تاريخ الأدب العربي ٢٠٦/٥ . هذا ما ذكره بروكلمان . وقد اطلعت على هذا المخطوط الموجود بدار الكتب وهو منسوب إلى السيد الشريف الجرجاني . ومنذ السطر الأول تأكد لي أن : هذا التفسير لا يمكن أن يكون بحال من تصنيف عبد القاهر فروحه وأسلوبه الذى عرف به في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز مفقود . ولا يمكن أن يكون إلا لواحد من التأخرين المشتغلين بالكلام والمنطق والجدل مثل السيد الشريف . وأنا هنا لست في مجال مناقشة هذه القضية ، فهذا التفسير لم ينسبه لعبد القاهر واحد ممن ترجم له . وهو منسوب للسيد الشريف في فهرس دار الكتب فالعجيب بعد ذلك أن ينسبه بروكلمان لعبد القاهر . ولعله منسوب خطأ إلى عبد القاهر في بعض النسخ المخطوطة التي ذكرها بروكلمان فجعلها هي الصادرة ووهي نسخة القاهرة ، وهذا مما لا دليل عليه .

(١) تفسير الكشاف ٣/١ .

وهذا النص القيم الزمخشري يتضح منه هذا الارتباط القوي بين علوم البلاغة وعلم التفسير حتى إنه جعل « علمى المعانى والبيان » علمين مختصين بالقرآن الكريم . وجعل حاجة المفسر إليهما ضرورية للغاية . وورود مصطلح « المعانى والبيان » فى هذا النص المبكر جعل الكثير من باحثينا يذهبون إلى أن الزمخشري هو صاحب قسمة علوم البلاغة إلى معان وبيان ، وأنه بفعله هذا سبق السكاكى . يقول الدكتور شوق ضيف : « وكان عبد القاهر يسمى العلم الأول علم النظم أو الأسلوب . وكان الزمخشري المعتزلى رأى أن يعدل عن هذا الاصطلاح وكانت كلمة « البيان » قد ترددت على لسان عبد القاهر فى فاتحة كتابه « أسرار البلاغة » فاتخذها الزمخشري علماً على مباحثه فيه . وهى مباحث تناولت فى تفصيل التشبيه والاستعارة والمجاز بنوعيه اللغوى والعقلى أو الإسنادى أو الحكمى . وبذلك كان الزمخشري أول من ميز بين هذين العلمين فجعل لكل منهما مباحثه الخاصة واستقلاله الذى يشخصه » (١) .

وذهب الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه عن الزمخشري إلى أنه أول من فرق بين علوم البلاغة (٢) . وذهب إلى مثل ذلك الدكتور البيومى فى كتابه خطوات التفسير البيانى حيث قال : « وهنا نتعرض إلى مسألة هامة فى تاريخ علوم البلاغة فنذكر أن أول من سعى مباحث النظم بعلم المعانى هو الزمخشري . وقد درج المؤرخون على أن السكاكى صاحب التسمية . ولكن قراءة مقدمة الكشف تدل على أن السكاكى قد تابع صاحب الكشف حين كتب المفتاح . فخص البيان بالصور البلاغية ، وخص المعانى بالنظم ، لأن الزمخشري قد نص صراحة فى مقدمته على أن علمى البيان والمعانى هما من ألزم اللوازم لمن يتعرض للتفسير » (٣) .

والحق أن ما ذهب إليه الأساتذة الباحثون ليس صحيحاً . والذى أوقعهم

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) انظر : الزمخشري للدكتور أحمد الحوفى : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) خطوات التفسير البيانى : ٢٣٢ .

فيما ذهبوا إليه من سبق الزمخشري إلى قسمة علوم البلاغة هو هذا النص السابق للزمخشري في خطبة تفسيره حيث ورد فيه استخدام مصطلح « علم المعاني والبيان » . وليس ورود هذين المصطلحين في عبارة الزمخشري دليلاً على أنه يريد بهما ما أراداه السكاكي منهما فيما بعد . فعلم المعاني عند السكاكي ومتابعيه يختص بالبحث في الإسناد وأحوال الجملة من التقديم والتأخير والذكر والحذف والفصل والوصل والإيجاز والإطناب . يقول الخطيب القزويني في تلخيصه معرّفاً علم المعاني : « وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، وهو ينحصر في ثمانية أبواب : أحوال الإسناد الخبري ، وأحوال المسند إليه وأحوال متعلقات الفعل ، القصر ، الإنشاء ، الفصل والوصل ، الإيجاز والإطناب والمساواة » ^(١) أما البيان عندهم فينحصر في مباحث التشبيه والمجاز والكناية ^(٢) .

ونص الدكتور ضيف السابق يقرر صراحة أن الزمخشري حدد البيان في هذه الصور الثلاث دون ما عداها كفعل السكاكي ومتابعيه . ولكن النظرة المتأمله في الكشف تدحض هذه المقولة ننظر إليه في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ ابْعَثُوا الْمُرْسَلِينَ ابْعَثُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَالِيَ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ فَاذْكُرُونِي فَإِنَّكُمْ تَرْجِعُونَ الْغَدُّ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرْذِنِ الرَّحْمَنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَاقِبَةٌ هَئِنَّا لَا يَنْقُذُونِ . إِنْ يَشَاءُ يُرْزِقْ ضَلَالٌ مُبِينٌ . إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [سورة يس ٢٠ - ٢٧] حيث يقول : « أي لما قيل قِيلَ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ... فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ مَخْرَجَ هَذَا الْقَوْلُ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ ؟ قُلْتَ (مَخْرَجُهُ مَخْرَجُ الِاسْتِثْنَاءِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ مِثَالِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ . كَأَنَّ قَائِلَهُ : كَيْفَ كَانَ لِقَاءُ رَبِّهِ بَعْدَ هَذَا التَّصَلُّبِ فِي نَصْرَةِ دِينِهِ ، وَالتَّسَخُّي لَوَجْهِهِ بِرُوحِهِ ؟ فَقِيلَ : قِيلَ ادْخُلِ

(١) انظر : الأطول « أطول شرح التلخيص » لابن عربشاه : ٣٨/١ وما بعدها .

(٢) السابق : ٥٠/٢ - ٦٤ .

الجنة » ، ولم يقل : « قيل له » ، لانصباب الغرض إلى القول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا » ^(١) .

ومن المتفق عليه أن البحث في « الاستئناف » من مباحث علم « المعاني » لا « البيان » والزمخشري أدخله هنا تحت مسمى « البيان » . فلو كان البيان عنده بمعناه عند المتأخرين في إيراد المعنى الواحد بصور مختلفة في وضوح الدلالة أو عدمها لكان مخطئًا في عده « الاستئناف » في ذلك . فما علاقة الاستئناف بوضوح الدلالة أو غموضها ؟!

ونجد الزمخشري يعد « اللف والنشر » أيضًا من « البيان » . عند قوله تعالى : ﴿ وَتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] . يقول : « وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا الثَّقاب المحدث من علماء البيان » ^(٢) .

وفي قوله تعالى من سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يعرض الزمخشري للالتفات ويجعله من علم البيان ^(٣) .

فالزمخشري أدخل تحت مسمى « البيان » الاستئناف من مباحث المعاني ، واللف والنشر من مباحث البديع ، والالتفات من مباحث المعاني أو البديع على خلاف بين البلاغيين في ذلك ^(٤) . وفعله هذا دليل على عدم حصره لمباحث البيان في التشبيه والاستعارة والمجاز كما ذهب الدكتور شوقي ضيف فالبيان عنده ما زال بمعناه الرحب المتسع الذي يرادف مصطلح « البلاغة » عند المتأخرين

(١) تفسير الكشاف ٢٨٤/٣ .

(٢) المرجع السابق ١١٤/١ .

(٣) المرجع السابق ١٠/١ .

(٤) الالتفات ذكره السكاكي مرة في علم المعاني وأخرى تحت البديع ، وقد جعله القزويني تحت « المعاني » وتبعه على ذلك شراح التلخيص ، انظر مفتاح العلوم : ٩٥ . والأطول ١٥٣/١ . وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح « ضمن مجموعة شروح التلخيص » : ٤٦٣/١ . وشرح عقود الجمان ٢٨ .

حيث يدخل فيه تناول جميع الصور والأساليب الفصيحة . وهذا المعنى الرحب للبيان هو ما نجده عند المتقدمين . وهو استخدام عبد القاهر . وقد أبان عنه بما عُنُون به لبعض فصول دلائل الإعجاز حيث يقول : « فصل » في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم » (١) .

وواضح من كلامه هنا أنه يفهم البلاغة والفصاحة والبراعة والبيان على أنها مترادفات لمعنى واحد هو معنى الإفصاح والإبلاغ والإبانة عما في النفس وتوصيل ذلك للسامعين . وهذا لا يخرج عن معناها في أصل اللغة . يقول صاحب القاموس في مادة (بين) « وبان بياناً : اتضح فهو بَيِّنٌ ... والبيان : الإفصاح مع ذكاء ، والبيِّن : الفصيح » . وقال في مادة (بلغ) : « بلغ المكان ... وبلغ الصبى ... والبلغ ويكسر ... : البليغ الفصيح يبلغ بعبارة كنه ضميره .. بلغ ككرم » (٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَلِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء ٦٢ ، ٦٣] يقول الرخخشرى : « هذا من معارضض الكلام . ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني . والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى (٣) أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم . وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أُمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة فقلت له : بل كتبتَه أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء

(١) دلائل الإعجاز : ص ٥٤٧ .

(٢) القاموس المحيط مادة (بين) ، و (بلغ) .

(٣) في مطبوعة الكشاف و (إلا) ويبدو أنه خطأ مطبعي .

به لانفيه عنك وإثباته للأمرى أو المخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر « (١) » .

وأسلوب التعريض هنا ليس من مباحث علم المعاني ، كما حددها المتأخرون . إذن « فالمعاني » عند الزمخشري ليست هي « المعاني » السكاكية . وقد حاول الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى أن يستنبط من هذا النص للزمخشري تعريفاً لعلم المعاني عند الزمخشري فقال : « وإذا كانت هذه وظيفة علماء المعاني كما يحددها هذا النص فإنه يمكن أن نقول : إن علم المعاني هو العلم الذى يرشد إلى ما تحمله النصوص الأدبية من دقيق المعاني وخفى الإيحاءات وذلك بدراسة هذه النصوص وتقليب دلالتها على وجوه مختلفة وتوضيح ما يعطيه متن النص أو جانبه » (٢) .

فاتضح إذن بما لا يدع مجالاً للشك أن الزمخشري فى تفسيره لم يخصص الاستخدام العام لألفاظ « البيان والمعاني والبلاغة » ، والى جرى عليها السابقون ولم يقم بتضييق دائرة المباحث البلاغية وحصرها فى نطاق محدود لا تتجاوزه بقسمة البلاغة إلى علومها المعروفة عند المتأخرين ، وأن قسمة البلاغة إلى هذه الفروع لم يقم به أحد قبل السكاكى . وهو فعل منه ليس من ورائه طائل فنى أو كسب جمالى يستفيده الدارس للبلاغة . بل كان لهذا من الأثر السلبى الكثير على تذوق الجمال واستشعاره فى النص . حتى ضج من ذلك الكثير من الدارسين . يقول الشيخ على عبد الرازق فى أماليه : « إننا لا ندرك وجهاً للقول بأن علم البيان باحث عن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فإننا نعتقد أن هذا المعنى لم يكن يجوز بأذهان المتقدمين الذين وضعوا قواعد الفن وهذبوها وضبطوها من قبل أن يكون السكاكى ويكون تحقيقه هذا . وما كان عبد القاهر والذين قبله يفهمون المجاز والكناية والتشبيه على أنها طرق من الكلام مختلفة فى

(١) الكشف ١٥/٣ .

(٢) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري : ص ٢٥٠ .

تأدية المعنى الواحد . ولئن فهموا ذلك وأدركوه فما هو بشيء ذى بال يدعو إلى البحث عنها والتأليف فيها ومعاناة استخراج قواعدها وضوابطها وشواهدا . ولكنهم حين توجهوا إلى البحث في هذه الأبواب كانوا لا غير باحثين عن أسرار بلاغة الكلام ودلائل إعجاز القرآن وليس عن طرق التأدية المختلفة كما يرى السكاكى رحمه الله .. » (١) .

ويقول في موضع آخر : « وبزعمنا أن نقول إن علم البيان كان آخر أيامه يوم كتب الخطيب تلخيصه فاقصر عليه من جاء بعده ، ووقفوا أنفسهم على ما حوى من ترتيب وقواعد لا يميلون عنه قيد شعرة ، ولا تطمح أنظارهم إلى ما وراءه . كذلك لا نجد بعد الخطيب القروينى من يسند إليه في هذا الفن إصلاح . ولا يزال العلماء من لدن سعد الدين التفتازانى إلى عصرنا الحاضر واقفين عند حد الخطيب متبعين خطاه . ولا عجب فهذا شأن كثير من العلوم العربية والدينية وسبحان من جعل العلوم كالعباد تسعد وتشقى وتموت وتحيا . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » (١) .

وهذه صرخة حرى تحمل لوعة الحسرة والأسى التى آل إليها مصير الدرس البلاغى بعد الإمامين السكاكى والخطيب . وأحب أن أقرر هنا أن هذا النقد لا ينقص من قدر الشيخين الجليلين ولا صنعهما كما قد يفهم بعض الناس . فالإنسان ابن عصره ، لا يمكنه أن يفصل عن روح هذا العصر . وقد كان طابع التأليف فى كافة العلوم الأدبية والشرعية فى عصرهما مطبوعاً بروح المنطق الأرسطى وتقسيماته وتفرعاته مثلما أن المنهج العلمى القائم على الملاحظة والتجربة فى عصرنا ساد وأصبح له تأثيره حتى على مجالات البحث البعيدة عن نطاق المادة والتجربة ، ويمكننا أن نجده حتى فى دراساته الأدبية والجمالية . فتصنيف السكاكى والخطيب جاء استجابة لهذه الروح المسيطرة على معاصريهما . وقد

(١) أمالى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه ص ٦٧ .

(٢) السابق : ٣٩ - ٤٠ .

أجادا بمقاييس عصرهما وبلغا الذروة في ذلك . وهذا ما يفسر لنا هذا النجاح الباهر للمفتاح وتلخيصه وسيادتهما وإقبال الدارسين عليهما بالشرح والاختصار والتعليق والتحشية وغيرها من مظاهر الاهتمام بالكتابين .

ومنذ أن بدأ نجم المنطق الأرسطي في الأفول بدأت الصيحات تنادى بالنظر في صنيع السكاكي والخطيب وارتفعت الأصوات للعودة إلى دراسة البلاغة والبيان والمعاني دون تفرقة بينها ، على أنها علم واحد يعنى بأساليب العرب في فن القول .

وهذا هو ما نهجه المفسرون فقد كان الواحد منهم قبل أن يشرع في تفسيره يلح في مقدمته على أهمية معرفة أساليب القول عند العرب وطرقه وأن القرآن جرى على هذه الأساليب . ومن هذا المدخل كان اهتمام المفسرين بالتناول الجمالي لأساليب القرآن وبلغوا في ذلك مبلغًا كبيرًا .

وقد وعى سلفنا هذه العلاقة القوية بين البلاغة والتفسير عند نظرهم إلى مجموعة العلوم العربية والإسلامية . هذا بدر الدين الزركشى ينقل لنا عن بعض شيوخه قوله : « العلوم ثلاثة : علم نضج وما احترق . وهو علم الأصول والنحو ، وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث ... » (١) .

وهذه المقولة تكشف عن مجال مشترك بين هذين العلمين وأن فيهما متسعًا للقول والنظر وأن هذا القدر كبير ، فهما علمان لم يصلا لدرجة النضج فضلًا عن الاحتراق . وبهذا يظهر مباينة هذين العلمين لغيرهما من العلوم الأخرى ، ويظهر بجلاء مدى الارتباط القوي بينهما .

ومن هنا كان اهتمام الشيخ ابن التقيب - في هذه المقدمة لتفسيره الكبير - بعلم البيان وجعله مفتاحًا لمن يريد التصدى لتفسير القرآن الكريم . وهذا ما شرطه غير واحد من وجوب إلمام المفسر وتمكنه من علوم البلاغة مثل أئى حيان

(١) شرح عقود الجمان : ٣ .

في تفسيره البحر المحيط ، والزر كشي في البرهان ، والسيوطي في الإتقان وغيرهم .
ونجده يقول : « وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم
اللغة وعلم العربية وعلم البيان ، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في
مواطن افتخارها ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها فعلم منه تلوين الخطاب
ومعدوله ، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع ،
ومحاسن الحكم والأمثال . فإذا علم ذلك . ونظر في هذا الكتاب العزيز ، ورأى
ما أودعه الله سبحانه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان فقد أوتى فيه العجائب
العجائب ، والقول الفصل الباب ، والبلاغة الناصعة التي تحيّر الألباب ، وتغلق
دونها الأبواب . فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ، ومجاراته
لهم في ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم ، ويثبت أنه ليس من خطابهم
لديهم ، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم ، وكَلَّتْ عن النطق بمثله ألسنة بلغاتهم ،
وبرز في رونق الجمال والجلال في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال ؛ ولذلك
يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة ، نفوس
خشية ، ستلذه الأسماع ، وتميل إليه بالحنين الطباع ، سواء كانت فاهمة لمعانيه
أو غير فاهمة ، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة ، كافرة بما جاء به أو
مؤمنة ... » (١) .

ونجد الشيخ ابن النقيب يقرر في خطبة هذه المقدمة أن « من لم يعرف
هذا العلم - أي علم البيان - كان عن فهم معاني الكتاب العزيز بمعزل ، ولم
يقم ببعض حقوق المنزل والمنزل » (٢) . ونلمح في عبارته نبرة الأسى والحزن
على مآل إليه حال علم البيان في زمانه فيقول : « فما علم من العلوم الإسلامية
رمى بالهجر والنسيان ما رمى به علم البيان ، ولو أداموا النظر فيه والتلمح لمعانيه
لأطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تمش لها القلوب ودقائق تسفر لهم عن وجوه
المطلوب » (٣) .

(١) مقدمة ابن النقيب : ١٢ .

(٢) السابق : ١٦ .

(٣) السابق : ١٥ .

وهكذا فمقدمة الشيخ ابن النقيب دليل قوى على هذه الصلة الحميمة بين علم تفسير القرآن الكريم وفن البلاغة ونقد الأدب ، هذه الصلة التى قد يستبعد الكثير من أبناء زماننا وجودها . وفى ظنى أن المفسرين مُذْ غابت عنهم هذه العلاقة الحميمة بين العلمين وغاب عنهم حاجة المفسر إلى درس البلاغة ونقد الأدب ، وتفسيرهم وكتاباتهم صارت إلى تكرار أسطر محفوظة تلوّكها الألسنة جيلاً بعد جيل . حتى صار الأمر إلى ما نحن عليه اليوم بُعْد شقة ، وهوة سحيقة بين دارس القرآن ودارس نقد الأدب وفصيح الكلام . وإنّ من يتأمل فى تفاسير القرآن التى ذاعت وتلقّتها الأمة بالقبول يجد أصحابها من فرسان البلاغة والبيان ، فكان لهم هذا العلم مركباً استطاعوا من خلاله كشف المراد عن جمال القرآن وروعه وتقريب الناس إليه . كلّ حسب ما حباه الله به . والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ...

* * *

٤ - مصطلح « علم البيان » ،

عند ابن النقيب

مصطلح « علم البيان » ذو معنى رَحْب عند ابن النقيب ، فلم يحصره في هذه المباحث المحدودة من المجاز والتشبيه والكناية والتي حصره فيها السكاكِيُّ ومتابعوه . ورغم أنه كان معاصراً للسكاكِي فلم يرد له ذكر في كتابه أو تأثر به . ووجدناه يستعمل مصطلح « علم البيان » استعمال الأوائِل بما يمكن أن يكون مرادفاً لمصطلح « نقد الشعر » و « البلاغة » معاً حيث دخل تحته - عنده - كل أبواب علوم البلاغة الثلاثة عند السكاكِي والقزويني ، بالإضافة إلى بعض مباحث نقد الشعر كالوصف والغزل والمدح وما إليها .

وابن النقيب ليس بِدَعَا في هذا الاستخدام . يقول الشيخ حسن العطار في حاشيته على السمرقندية ناقلاً عن حاشية السيوطي على البيضاوي : (إن المتقدمين كانوا يسمون علم البلاغة وتوابعها بعلم « نقد الشعر » ، وصنعة الشعر ، ونقد الكلام » ، وفيه آلف العسكري كتاباً سماه « الصناعتين » يعنى صناعة النظم والنثر . وآلف قدامة كتاباً سماه « نقد الشعر » . وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين » ^(١) .

* * *

(١) حاشية الشيخ حسن العطار على السمرقندية : ٤ .

أما المصادر التي نقل عنها ابن النقيب فقد ذكرها ناصباً عليها في قوله :
(وهذه الجملة التي تأصلت وتحصلت ، والفوائد التي بعد إجمالها فصلت نقلتها
من كتب ذوى الإتقان ، علماء علم البيان التي وقفت عليها ، وترقت همة اطلاعى
إليها من كتب المتقدمين والمتأخرين وهى كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الحالى
والعاطل للحاتمي ، وكتاب المحاضرة له ، وكتاب الصنائع للعسكري ، وكتاب
اللمع للعجمي ، وكتاب المثل السائر لابن الأثير ، وكتاب الجامع الكبير لابن
الأثير أيضاً ، وكتاب البديع لابن منقذ ، وكتاب العمدة للزنجاني ، وكتاب نظم
القرآن له أيضاً ، وكتاب نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد
الواحد بن عبد الكريم الأنصارى ، وكتاب التفريع في علم البديع لزكى الدين
عبد العظيم بن أبى الإصبع . وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتى ،
مع ما أضفت إليها من فوائد مستعذبة ، وفرائد حسنة المساق مستغربة ، نقلتها
عن الأئمة الأعلام الأكابر ، ونقلتها عنهم من ألسنتهم لا من بطون الدفاتر ،
وما أضفت إلى ذلك مما تفضل الله به ومنع : من مهمل أبتته ، ومجمل فصلته ،
وشارد قيدته وحصلته ، ليكمل بهذا الكتاب النفع ، ويأتى على نهاية من حسن
الوصف وبديع الجمع ...) (١) .

هذا هو نص المطبوعة وأنا في شك منها فهذا النص يقرر أن من مصادره
كتاباً بعنوان « العمدة للزنجاني ، ونظم القرآن له » . وقد بحثت في كتب التراجم
والطبقات عن كتاب بهذا الاسم ولهذا المؤلف فلم أظفر بباطل . وأنا أرجح أن
هنا سقطاً وقع في نص المطبوعة أو أنه موجود في الأصل المخطوط وأستظهر أن
يكون صواب العبارة (وكتاب العمدة لابن رشيقي القيرواني ، ومعيار النظار
في علوم الأشعار للزنجاني ...) وهذا ما اعتديت إليه بعد دراسة متن الكتاب

(١) المقدمة : ١٢ - ١٥ .

ونقوله . فقد جاء ذكر « الزنجاني » في عدة مواضع من الكتاب :

١ - في آخر القسم الرابع والعشرين : في « براءة الاستهلال » من فتون المعاني . واعتذر المصنف عن إفراده هذا القسم بهذا العنوان رغم أنه سبق معناه في فصل « حسن المطلع » وهو القسم الثاني والعشرون بأن الزنجاني أفردته ، وأنه متابع له في ذلك ، وأن هناك بعض الزيادات التي أوجبت ذلك . يقول ابن النقيب : « هذا النوع قد قدّمناه في فصل « حسن المطلع » لكن الزنجاني رحمه الله أفرد له باباً فأفردناه على حكم ما أفردته . وكان في فصل « حسن المطلع » زيادات يحتاج إليها فذكرناها هاهنا . وهذه الزيادة التي اقتضت إفراده » (١) .
وقد صدر مؤخراً كتاب « معيار النظار في علوم الأشعار » للزنجاني وفيه هذا الفصل عن براءة الاستهلال (٢) .

٢ - جاء ذكر الزنجاني أيضاً في فصل « المقابلة » وهو القسم الثامن والشعرون (٣) . حيث تابع ابن النقيب الزنجاني في تفرقه بين « الطباق والمقابلة » وذكر بعض أقسامها (٤) .

٣ - وفي قسم « الاشتقاق » من أبواب التجنيس أورد نوعاً قريباً منه وذكر أنه يسمى بـ « المشابهة » ومثل له بقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ ، ومثل له بقول البحتری .
وَإِذَا مَا رِيَّاحُ جُودِكَ هَبَّتْ صَارَ قَوْلُ الْعِدَاةِ فِيهَا هَبَاءً
وذكر أن الزنجاني ذكره في تكملته (٥) .

وهذا موجود عند الزنجاني في « معيار النظار » في باب الاشتقاق من باب التجنيس (٦) .

(١) المقدمة ص : ٢٩١ .

(٢) معيار النظار في علوم الأشعار للزنجاني (١٣٢/٢) .

(٣) المقدمة : ٣٠٨ .

(٤) انظر معيار النظار للزنجاني : ٩٤/٢ - ٩٥ .

(٥) المقدمة : ٤٥٧ .

(٦) معيار النظار : ٨/٢ .

٤ - وفي قسم « التوشيح » وهو القسم الخامس عشر من أقسام الفصاحة اللفظية عرّف ابن النقيب التوشيح بأنه أن تكون ذيول الأبيات ذات قافيتين على بحرین أو ضربین من بحر واحد ، فعلى أى القافيتين كان الوقوف كان الشعر مستقيماً ثم ذكر أن هناك نوعاً آخر يسمى « الملون » وعزاه للزنجاني ^(١) . وهذا النوع عند الزنجاني في معيار النظار ^(٢) .

وبهذا يثبت لنا أن من مصادر ابن النقيب كتاب معيار النظار في علوم الأشعار لعبد الوهاب الزنجاني . وأن خطبة الكتاب قد دخلها شيء من التحريف . أمكننى إصلاح هذا الخلل منه إلا أنه يبقى خلل آخر في نسبته كتاب « نظم القرآن » للزنجاني . ولم أقع عند أحد ممن ترجم للزنجاني واهتم بسرد مؤلفاته على كتاب له بهذا الاسم .

ومن المصادر التي اعتمدها ولم يرد ذكرها في خطبته كتاب « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » فقد تأثر به ونقل عنه مراراً ومصرحاً باسم مؤلفه الفخر الرازي . حيث نقل عنه في باب « الاستعارة » رده على الرماني في ضبط حد الاستعارة ^(٣) ، وتعريفه لها . ونقل فصلاً كاملاً ^(٤) فيما احتوى عليه القرآن الكريم من الاستعارة وصرح بذكره ^(٥) . ونقل عنه قسمته الأسماء إلى ثلاثة أقسام : أسماء أعلام وأسماء مشتقة وأسماء أجناس . وكيفية وقوع الاستعارة فيها ، وأن أسماء الأعلام لا تدخلها الاستعارة حيث المشابهة معتبرة في الاستعارة وهي غير معتبرة في الأعلام ، وأما الأسماء المشتقة فلا تدخلها الاستعارة أيضاً دخولاً أولياً ، وأن الاستعارة شأنها أن تقع أولاً في المصدر ، ثم بواسطتها في الفعل وفيما اشتق منه ، أما أسماء الأجناس فهي التي تقع فيها الاستعارة وقوعاً أولياً ^(٦) . وقد جاء ذكر الرازي صريحاً في قسم المقابلة ^(٧) .

(١) المقدمة : ٤٨٤ .

(٢) معيار النظار : ٩ .

(٣) المقدمة : ٩٠ . وقابل بنهاية الإيجاز : ٢٣١ - ٢٣٣ .

(٤) ص : ٩٦ .

(٥) ص : ١٠٠ ، وهذا الفصل عند الرازي في نهاية الإيجاز : ٢٦٣ - ٢٦٩ .

(٦) ص : ١٠٤ ، ١٠٥ وقابل بنهاية الإيجاز : ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٧) انظر ص : ٣٠٨ .

وما ذكرته هي المواضع التي صرح فيها ابن النقيب بالنقل عن الرازي ،
وتطول ذيل الكلام لو قمنا باستقراء المواضع الأخرى التي استفاد بها من نهاية
الإيجاز ولم يشير إليها .

* * *

أما كتاب « اللع » للعجمي فقد جاء ذكره عند أسامة بن منقذ في خطبة
كتابه « البديع في نقد الشعر » وجعله من مراجعه التي اعتمدها ^(١) ولم يزد في
تسميته على تسمية ابن النقيب : « اللع للعجمي » . وهذا الكتاب في نقد الشعر
لعله كتاب « لمع الصناعة » لمحمد بن أحمد الأردستاني . قال عنه الحاج خليفة
في كشف الظنون : (لمع الصناعة أي البديع لمحمد بن أحمد الأردستاني المتوفى
٤٢٤ هـ) ^(٢) . ولم يزد على ذلك . وكتاب الأردستاني هذا ذكره صفى الدين
الحلي (المتوفى ٧٥٠ هـ) من مراجعه التي اعتمدها في تصنيف شرحه على
« الكافية البديعية » ^(٣) . له والأردستاني هذا ذكره الأعلمی في دائرة معارفه
فقال عنه : (محمد بن أحمد الأردستاني أبو عبد الله صاحب كتاب صناعة الشعر ،
إمامي ثقة ^(٤) . وذكره كحالة ^(٥) في معجم المؤلفين وجعله من أهل القرن
السادس الهجري نقلاً عن كتاب أعلام الشيعة .

* * *

وأما كتاب « الحالى والعاطل » للحاتمي فهو كتاب نادر من قديم حتى
إن ابن أبي الإصبع في مقدمة كتابه تحرير التحبير تباهى بأنه أطلع عليه وكشف

(١) البديع في نقد الشعر لابن منقذ : ٨ .

(٢) كشف الظنون : ١٥٦٢/٢ .

(٣) شرح الكافية البديعية للحلي : ٣٥٤ .

(٤) دائرة معارف الأعلمی « مقتبس الأثر ومجدد ما دثر » للشيخ محمد الحسين الأعلمی الحائري :

١٤٣/٢٦ . وترجمة الأردستاني مقتضبة في كتب تراجم الشيعة . وانظر : أمل الآمل للحرعامل القسم
الثاني : ٢٣٥ ، وتنقيح المقال في علم الرجال للامامقاني - المجلد الثاني - ترجمة رقم ١٠٢٩٦ ، وجامع
الرواة للأردبيلى : ١٥٨/٢ - ترجمة ٤٤٨ . وانظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة : ٢٨٩/١٥ .

(٥) انظر معجم المؤلفين : ٢٢٩/٨ .

عنه . يقول ابن أئى الإصبع : (وكشفت عن « الحالى والعاطل » الذى ذكره الحاتمى فى الحلية فلم أجد من يعترف بوقوفه عليه سوى ابن منقذ فى بديعه) (١) . وهذا الكتاب مفقود اليوم .

* * *

وأما كتاب « نهاية التأميل فى كشف أسرار التنزيل » فهو تفسير للقرآن الكريم من تصنيف الشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم الشهير بابن الزملىكانى صاحب كتاب « التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن » ، و « البرهان فى إعجاز القرآن » . وهما مطبوعان . أما « نهاية التأميل » فقد ذكر محققا كتابه « التبيان » أن منه نسخة بدار الكتب المصرية ، وأنه منسوب لمؤلف آخر (٢) . وهذا الذى ذكره الأستاذان ليس صحيحاً ، والذى أوقعهما فيه نص فهرست الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية حيث جاء فيه : « نهاية التأميل فى علوم التنزيل » وهو تفسير تأليف العلامة عماد الدين أبى حفص عمر بن الخطيب بالمسجد المتوفى سنة ٦٠٠ هـ . كما جاء فى أوله . وأن هذا التفسير هو مختصر البغاوى (البغوى) جزء (١) ، مجلد (١) . خط مغربى ١٢١٤ . برقم ٤٧١ تيمور . فى كشف الظنون : نهاية التأميل فى أسرار التنزيل فى التفسير لكمال الدين عبد الواحد بن المعروف بابن الزملىكانى المتوفى ٦٥١ هـ ، فليحقق . هذا هو نص فهرست الخزانة التيمورية . وهذا المذكور فيه كتاب آخر غير كتاب ابن الزملىكانى ، ولا علاقة له به . وقد راجعت هذا المخطوط على الميكروفيلم بدار الكتب المصرية ، وعنوانه فيه : « نهاية التأميل فى علوم التنزيل » . ومؤلفه الشيخ عماد الدين أبى حفص عمر بن الخطيب بالمسجد الأقصى المتوفى ٦٠٠ هـ . هكذا جاء فى صفحة العنوان . وقد استوقفنى ما جاء فى عبارة فهرست الخزانة التيمورية السابق : « وهو مختصر البغاوى (البغوى) للزملىكانى ،

(١) تحرير التحرير : ٨٨ . وانظر بديع ابن منقذ : ص ٨ .

(٢) انظر مقدمة تحقيق كتاب التبيان ، ص ١٢ - ١٣ .

وهذه عبارة غير صواب ، فلا يوجد مختصر لتفسير البغوى ذكرته كتب التراجم والطبقات لابن الزمלקانى . وقد أعجزنى التماس شىء من أخبار هذا المؤلف « الشيخ عماد الدين أبى حفص عمر بن الخطيب . ولم أعرف من هو ! وعليه فكتاب « نهاية التأمل » لابن الزمלקانى مفقود إلى اليوم

* * *

أما باقى المصادر التى سردها ابن النقيب وهى : البديع لابن المعتز ، وحلية المحاضرة للحاتمى ، والصناعتين للعسكرى ، والمثل السائر ، والجامع الكبير ، لابن الأثير ، والبديع . لابن منقذ ، وكتاب ابن أبى الأصبع فهى مطبوعة . إلا أن كتاب ابن أبى الإصبع هنا ورد باسم « التفریع فى علم البديع » ولم يشر الدكتور حفى شرف فى تحقيقه إلى هذه التسمية ولم يذكر أن للكتاب اسماً آخر غير الذى نشره به تحت عنوان « تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » .

* * *

ومن المصادر التى اعتمد عليها ابن النقيب ولم ترد فى خطبته كتاب الشيخ العز بن عبد السلام : « الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز » حيث اعتمد عليه اعتماداً شبه كامل فيما عقده من مبحث عن الحقيقة والمجاز . ونقل كلامه بنصه دون تصرف . وكما يظهر من الجدول الآتى وفيه عنوان المبحث عند ابن النقيب ومكانه عند الشيخ العز بن عبد السلام :

كتاب ابن النقيب	كتاب العز ابن عبد السلام
٢٥ - ٣٥	القسم الأول من أقسام المجاز : مجاز التعبير بلفظ ٢٠ - ٣٧ المتعلق به عن المتعلق .
٣٦ - ٣٨	القسم الثاني : إطلاق اسم السبب على المسبب ٣٧ - ٣٩
٣٩ - ٤١	القسم الثالث : إطلاق اسم المسبب على السبب ٣٩ - ٤١
٤٢ - ٤٣	القسم الرابع : إطلاق اسم الفعل على غير فاعله لما كان سبباً له ٤٢ - ٤٧
٤٤ - ٤٥	القسم الخامس : الإخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم ٤٧
٤٦ - ٤٩	القسم السادس : إطلاق اسم البعض على الكل ٤٨ - ٤٩
٥٠ - ٥١	القسم السابع : إطلاق اسم البعض على الكل ٤٨ - ٤٩
٥٢	القسم الثامن : في التجوز بوصف الكل بصفة البعض ٥٠ - ٥١
٥٣	القسم التاسع : إطلاق اسم الفعل على مقاربه ٥١
٥٤ - ٥٥	القسم العاشر والحادي عشر : إطلاق اسم الشيء على ما كان عليه وما يؤول إليه .
٥٦	القسم الثاني عشر : إطلاق اسم المتوهم على المحقق ٥٢
٥٧ - ٥٨	القسم الثالث عشر : إطلاق اسم الشيء على الشيء الذي يظنه المعتقد والأمر على خلافه ٥٣ - ٥٤
٥٩ - ٦٠	القسم الرابع عشر : التضمنين ٥٤
٦١ - ٦٤	القسم الخامس عشر : مجاز اللزوم ٥٨ - ٦٠
٦٩	القسم الثامن عشر : التجوز في الأفعال ٢٦ - ٢٧
٦٧ -	القسم السادس عشر : التجوز بالمجاز عن المجاز : ١١٢
٦٨ -	القسم السابع عشر : التجوز في الأسماء ٢٠

وقد ورد ذكر العز بن عبد السلام « صراحة عند ابن النقيب في هذه المقدمة وأطلق عليه الشيخ الإمام . وهذا يثبت إطلاع ابن النقيب على كتاب « العز بن عبد السلام : في المجاز » وإن لم يرد له ذكر في مصادره التي ساقها في خطبة الكتاب .

* * *

وقد أكثر ابن النقيب من النقل عن ابن الأثير من كتايبه الجامع الكبير والمثل السائر والتصريح بذكر ذلك ^(١) .

* * *

ومن المصادر التي اعتمد عليها ابن النقيب كتاب « الشفا » للقاضى عياض في الفصل الخاص بإعجاز القرآن . ونقل عنه وصرّح باسم « عياض » .

* * *

(١) ويمكن التماس هذه المواضع من الفهرست الملحق بالمقدمة .

٦ - آراء ابن النقيب البلاغية

كان لابن النقيب منهجه الواضح عند تصنيف هذه المقدمة الكبيرة في علوم البلاغة بين يدي تفسيره ، فبناها على قسمين : الأول : ما كان من فنون البلاغة واردًا في القرآن الكريم وله نظيره من كلام العرب ، وأما الثاني : فهو ما كان من فنون بلاغية وردت في كلام العرب ولم يرد مثلها في القرآن الكريم . وهذا القسم الثاني - للأسف - مفقود . وما بين أيدينا من نص باق هو القسم الأول فقط .

ولعل ابن النقيب كان متأثرًا في هذا الصنيع بابن أبي الإصبع حيث أفرد كتابه « بديع القرآن » من كتابه الكبير « تحرير التحرير » ، وجعله خاصا بالفنون التي وردت في القرآن .

وهذا القسم الذى بين أيدينا - وهو ما ورد في القرآن - جعله في قسمين وتمهيد : أما « الأول » فخصصه للفنون التى تعود إلى « المعنى » ، وجعله أربعة وثمانين قسمًا .

وأما « الثانى » فجعله للفنون التى تعود إلى اللفظ ، وأورد تحته ثلاثة وعشرين قسمًا . ومهد لهذين القسمين بتمهيد طويل الذيل عن « الحقيقة والمجاز » وقسم المجاز إلى أربعة وعشرين قسمًا ، وتحت كل قسم منها أقسام .

وهذا العمل الكبير من ابن النقيب ليس فيه كثير ابتكار وتفرد ، فيمكن القول أن جهده انحصر فى جمع هذا العمل الكبير من كتب السابقين ومحاولة ترتيب ما جمعه بطريقة دقيقة . ومن هنا فقد كان أبو حيان الأندلسى - وهو من تلاميذ ابن النقيب دقيقا فى وصف عمل شيخه فى هذه المقدمة فى معرض حديثه عن التصانيف فى علم البيان والبديع حيث قال : « وقد صنف الناس فى ذلك تصانيف كثيرة ، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد بن سليمان

النقيب . وذلك في مجلدين قَدَمهما أمام كتابه في التفسير ، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني مقيم تونس المستمى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء .

كان أبو حيان دقيقا في وصفه عمل شيخه ابن النقيب هنا بالجمع ، ووصف عمل شيخه حازم في « منهاج » بالوضع . وفارق كبير بين منهجى الشيخين في كتابهما . ويجب ألا يتصور أننا بهذا نحاول التقليل من قدر هذه المقدمة ، فليس كل جمع بمذموم ، وقد حفظ لنا ابن النقيب بعمله هذا نقولاً من كتب لم يبق لنا منها سوى اسمها ، مثل اللمع للعجمي ، ونهاية التأمل لابن الزمِّلَكَاني ، والحالى والعاطل للحاتمي .

ومع اتجاه ابن النقيب إلى الجمع والاختيار من كتب البلاغة والنقد فإنه لم يخل عمله من بعض الوقفات والآراء الخاصة به . ومن هذه المواضع القليلة توقفه أمام رأى لابن الأثير في نوع من أنواع الحذف ، وهو إسقاط بعض الحروف من أصل الكلمة ، وأنه لا يجوز استعماله في القرآن ولا في تأليف الكلام الفصيح ، وإن كان جائزاً ؛ حيث ورد في أشعار العرب القدماء ، وفي كلامهم من مثل قول علقمة :

كَأَنَّ لِإِيرِيقَهُمْ ظَبْيَ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمًا بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْشُومٌ

أراد بقوله : « سَبَا الْكَتَّانِ : سبائب الكتان ، فحذف الهمزة والباء . ومثل قول لبيد :

درس المنا بِمُتَالَعِ قَابَانِ

أراد : المنازل . وقول أبي ذؤاد .

فكأنما تُذَكِّي سَنَابِكُهَا الْحَبَا

أى الْحَبَاب - وهو طائر صغير يُرى منه نور ضعيف ليلاً . يقول ابن النقيب : « هذا الذى ذكره ابن الأثير فيه نظر ؛ لأنه صح عن ابن عباس وجماعة من أكابر الصحابة والسلف الصالح أن هذه الحروف التى فى أوائل السور ، كل

حرف منها دال على كلمة حذف أكثرها ودل هذا المنطوق به على المحذوف .
 وقالوا : إن معنى « الم » : أنا الله الملك . وقالوا في « كهيعص » أن الكاف
 من « كاف » والهاء من « هاد » واستدلوا على ذلك بأن العرب استغنت بذكر
 حرف من الكلمة عن ذكرها في كثير من كلامها وأشعارها ففهمت المراد من
 ذلك الحرف . ومنه قول الشاعر :

جَارِيَةٌ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تَأْثُرَ تَذْهِينَ رَأْسِي أَوْ تُفْلِي أَوْ تَأْثُرَ
 أراد أن تأثُر وتذهبن رأسه وتفلِي أو تمسح ... وقال آخر :
 نَادُوهُمْ أَنْ تُلْجُمُوا إِلَّا تَأْثُرَ قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُمْ إِلَّا قَا
 وقال آخر :

قُلْتُ لَهَا أَلَا قِيَّيَ قَالَتْ قَافَ لَا تُحْسِنِ أَنَا نَسِيْنَا الْإِنْحَافَ

أى قف أنت . ومثل هذا في أشعار العرب وكلامهم كثير ، وإذا كثرت
 استعماله كان من الكلام الفصيح معلوداً وحسن في التركيب . وكلما بعد غور
 الكلمة واستعجم معناها كان فهمه بأول وهلة دليلاً على صحة الأفهام وجودة
 الغرائز وسلامة الطبع وحسن موقع اللفظ به ^(١) .

وهذا الذى ساقه ابن النقيب لا يقوم حجة في دفع رأى ابن الأثير ،
 وما ساقه من أمثلة لا يصل إلى الدرجة التى تجعلها أصلاً ثابتاً ^(٢) يمكن الاعتماد
 به في باب الفصاحة . وابن الأثير لم يمنع هذه الأمثلة من حيث الجواز . لكنه
 منع منها في باب الحسن والجمال . فليس كل ما يجوز يصح أن يؤخذ به في
 باب الفصاحة . وهذا الذى ذهب إليه يفتح الباب على مصراعيه أمام كل من
 يدعى في الكلام غير ظاهره ويذهب مذهب « الحذف » دون دليل واضح .
 وفي هذا فتح باب للفساد في اللغة أتى فساد .

(١) المقدمة : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) رأيت بعد كتابة هذه الكلمات نقلاً لابن السبكي في عروس الأفراح (١٨٩/١) عن حازم
 القرطاجنى أنه جعل قول ليبيد السابق :

درس لنا بماتع فأبان

من باب الضرورة وأنه نقص محض مستقيم .

وفي قسم الاعتراض والحشو نجد ينقل عن أسامة بن منقذ في بديعه أن الحشو غير المفيد أن تأتى في الكلام بألفاظ زائدة ليس فيها فائدة مثل قول النابغة :

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَغْوَامٍ ، وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

وقال آخر :

نَأْتُ سَلَمَى فَعَاوَدَنِي صُدَاغُ الرَّأْسِ وَالْوَصْبُ

فقوله : « الرأس » حشو لا فائدة فيه ، لأن الصداغ لا يكون إلا في الرأس .

وفي الحماسة :

أُنْعَى قَتَى لَمْ تَذِرْ الشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا ضَرُّهُ أَوْ نَفْعَا

فقوله : « طالعة » حشو لا فائدة فيه ، لأن قولهم : ذرت الشمس أى طلعت (١) .

وذهب ابن النقيب إلى أنه لا حشو في هذه الأمثلة السابقة ، وأن لها معان (فقوله لسته أعوام وذا العام سابع - فليس بزائد . وقد ورد مثله في القرآن وهو قوله تعالى ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَمَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ . وإنما قال ذلك الذى تقدم بيانه في باب التميم وهو رفع اللبس وتقرير المعنى في النفس » وأما قوله - « صداغ الرأس » - فهو من الإصابة والشق ومثل ذلك يتهاى في سائر الأعضاء وأما قوله - تَذِرْ الشمس طالعة - فهما وإن كانا بمعنى واحد فالعرب من عادتها أن تكرر لفظين بمعنى واحد للتأكيد . كقول الشاعر :

وَهِنْدُ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُونِدًا ﴾ (٢) .

(١) انظر البديع لابن منقذ : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) المقدمة : ٢٠١ .

فهذه الأمثلة عنده من باب « التتميم » لا من باب « الحشو » . و « التتميم »
 - عنده - هو القسم الثالث من أقسام الفصاحة المعنوية وعرفه بقوله : « هو
 أن تردف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس وتقربه إلى الفهم وتزيل عنه الوهم وتقرره
 في النفس » ^(١) .

وفي القسم العشرين من أقسام الفصاحة اللفظية (التطريز) نقل تعريفه
 عن علماء البيان فقال : (هو أن تأتي قبل القافية بسجعات متناسبة فيبقى في
 الأبيات أواخر الكلام كالطراز في الثوب . ومنه قول الشاعر :

أَمْسَى وَأَصْبَحُ مِنْ هَجْرَانِكُمْ دَنْفَا	يَرْتَى لِي الْمُسْتَفِقَانِ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ
قَدْ خَذَذَ الدُّمْعُ خَدَيَّ مِنْ تَذَكُّرِكُمْ	وَهَدَنِي الْمُضْنِيَّانِ الشُّوقُ وَالْكَمْدُ
كَأَنَّمَا مُهَجَّبِي شَلَوُ بِمُسَبَّعِي	يَتَنَابَهَا الضَّارِيَانِ الذُّبُّ وَالْأَسَدُ
لَمْ يَبْقَ غَيْرَ خَفِيِّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي	فِدَى لِكَ الْفَانِيَانِ الرُّوحُ وَالْحَسَدُ
إِنِّي لَأَحْسَدُ فِي الْعُشَاقِ مُصْطَبِرَا	وَحَسْبُكَ الْقَاتِلَانِ الْحُبُّ وَالْحَسَدُ ^(٢)

وعلق على ذلك ابن النقيب بقوله : (هذا النوع استخرجه المتأخرون وليس
 في شعر القدماء شيء منه ولا في كلامهم وقد استقرت من الكتاب العزيز وأشعار
 المولدين فوجدته على ثلاثة أقسام . الأول : ماله علمان علم من أوله وعلم من
 آخره . الثاني : ماله علم من أوله . الثالث : ماله علم من آخره . فأما الذي
 له علمان فكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
 لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .
 وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَلْسِنَتَكُمْ وَالْوَاكِنُكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ لَحْنِهِ إِنَّ

(١) المقدمة : ١٨٤

(٢) المقدمة : ٤٩٢

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ۝ . .

ومنه في الشعر قول بعضهم من أبيات :
وَالْمُسْعِدَانِ عَلَيْهَا الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ وَأَفْنَاهُمَا الْحَاذِلَانِ الْوَجْدُ وَالْكَمْدُ
وَالْعَاذِلَانِ عَلَيْهَا رَدُّ عَذْلَهُمَا فِي حُبِّهَا الْعَاذِرَانِ الْحُسْنُ وَالْجَيْدُ
وَالْبَاقِيَانِ هَوَاهَا وَالْفَرَامُ بِهِمَا فِدَاهُمَا الذَّهَبَانِ الرُّوحُ وَالْجَسَدُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ
مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا
وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ أَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ تُشْرًا ^(١) يَنْ يَدَى رَحْمَتِهِ أَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَنْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِلِّدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ
مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ .

وأما الذى طرازه من أوله فمنه فى القرآن كثير ، فمن ذلك قوله تعالى :
﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ . وهذا النوع قد ورد فيه من أشعار المتقدمين والمتأخرين فمن ذلك
قول البحتري :

(١) بضم النون والشين هى قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو - انظر غيث النفع ٣١٣ .

تَعْلُو الْوُفُودَ ثَلَاثَةً فِي أَرْضِيهِ إِفْضَالُهُ وَجَدَاهُ وَالْإِنْعَامُ
وَلِثَلَاثَةٍ تَعْشَاكَ مَهْمَا زُرْتُهُ إِزْفَادُهُ وَالْمَنْ وَالْإِكْرَامُ
وَلِثَلَاثَةٍ قَدْ جَانِبَتْ أَخْلَاقَهُ قَوْلُ الْبَذَا وَالزُّورُ وَالْآثَامُ
وَلِثَلَاثَةٍ فِي الْقَرِّ مِنْ أَفْعَالِهِ تَذْيِيرُهُ وَالنَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ

وأما الذى علمه من آخره ففى القرآن منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى :
﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ .
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴾ إلى آخر السورة ... ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَلِئْدَر .
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ إلى آخر السورة . ومن ذلك فى المرسلات
قوله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إلى آخر السورة (١) .

وهذا النص آثرت نقله رغم طوله بعض الشيء ، لأنه خالف فيه ابن النقيب
منهجه الذى اعتاده فى التعليق والشرح المقتضب والذى لا يصل إلا إلى سطور
قليلة .

وفى الفصل الذى عقده لبيان الإعجاز فى القرآن نجده بعد عرض أقاويل
العلماء فى هذا الشأن يختار أن يكون إعجازه (بحراسته من التبديل والتغيير
والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان فإنه ليس عليه لإيراد
ولا مطعن) (٢) . واستحسن بعد اختياره هذا قولاً آخر بأن الإعجاز فى تحدى
العرب بالصفة القديمة الكائنة بالذات الإلهية وهى صفة الكلام (٣) .

وفى القسم الثالث من أقسام الفصاحة اللفظية (الاشتقاق) عرفه بأنه
(أن يجرى بألفاظ يجمعها أصل واحد فى اللغة كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ وقول أبى تمام :

(١) المقدمة : ٤٩٢ - ٤٩٤

(٢) المقدمة : ٥٢٥

(٣) انظر ما سبق من كلام الأستاذ الشيخ أحمد شاکر على رأى المؤلف هذا ص : ٦ ، ٧

عَمَمْتَ الْخُلُقَ مِنْ نِعَمَاكَ حَتَّى غَدَا الثَّقَلَانِ مِنْهَا مُثْقَلَانِ (١)

ويعقب على ذلك بأن هذا الفن وإن عدوه أصلاً برأسه إلا أن الأولي كان أن يلحق بأجناس التجنيس . وجعل الآية من باب « التجنيس المغاير » ، والبيت من التجنيس المماثل (٢) .

* * *

(١) المقدمة : ٤٥٧ - ٤٥٨

(٢) السابق : ٢٢٠ . والتجنيس المغاير هو أن يكون من اسم وفعل . والمماثل هو الذى يكون من اسمين أو من فعلين .

كتاب الفوائد

المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان

تأليف الامام الحجة شمس الدين أبي عبد الله محمد
المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي
المتوفى سنة ٧٥١ تغمده
الله برحمته آمين



عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النمساوى

الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هجرية

على نفقة

(محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه بمصر والاسكندرية)

(طبع بمطبعة السعادة بمجوار محافظة مصر)

صورة غلاف الطبعة الأولى

فهذه مائة وخمسة عشر قميا اذا حررت بتفاصيلها جاوزت المائة وعشرين نوعا بل
أكثر من ذلك وقد ذكرناها مفصلة معينة بشواهدا من الكتاب العزيز والكلام
الفصيح وأشعار العرب والمختصرين والمتأخرين ولسأل الله العون والصون والتوفيق الى
ما يقربنا اليه ويذلنا لديه والله الموفق لا رب غيره ولا يستعان بسواه ..

﴿ يقول مصححه عنا الله عنه ﴾

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى (وبعد) فقد تم بعون
الله وحسن توفيقه طبع كتاب (الفوائد المشوق الى علوم القرآن
وعلم البيان) لمؤلفه شيخ الاسلام على التحقيق ناصر
السنة قانع البدع شمس الدين أبي عبد الله محمد
المعروف بابن قسيم الجوزية وهو كما ترى لم يؤلف في
بلاغة القرآن مؤلف على مثاله ولم تنسج
يد ناسج على منواله . وكان طبعه
الزاهي الزاهر بمطبعة (السعادة)
بمصر والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله
وصحبه ما تعاقبت
الاقوات

صورة خاتمة الطبعة الأولى